الفصل الثاني

وقفة مع تخليص الإبريز في تلخيص باريز وأثره في المجتمع العربي

- محتوى كتاب الرحلة
- وصف الغرب و مقارنتهم بالعرب
- حركة الترجمة و التعريب و الإصلاح

محتوى كتاب الرحلة

'تخليص الإبريز في تلخيص باريز' هو الكتاب الذي ألّفه رائد التنوير في العصر الحديث رفاعة الطهطاوي يمثل هذا الكتاب علامة بارزة من علامات التاريخ الثقافي المصري، والعربي الحديث، فهو بلا شك واحد من أهم الكتب العربية التي وضعت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، و التي ساعدت في بناء الحضارة العربية الشامخة، لذا تعتبر كتب الرحلة وسيلة من وسائل جمع المعارف، "فكان هاجس الرّحالة هو حب الاستطلاع الذي يقودهم، مما جعل بعض الدارسين يدخلون أدبيات الرحلات ضمن فنون الأدب العربي، عندما تصبح قراءة هذا اللون من الكتابة متعة ذهنية"[1].

و أصل هذا الكتاب هو تدوين الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي، ما شاهده أثناء بعثته لباريس، من عجائب و غرائب أذهلته على حد قوله، و من طبائع الفرنسيين و عاداتهم في شتى أمور الحياة " و الباعث الأول لرفاعة الطهطاوي على تقييد رحلته، هو الرغبة في التنبيه على ما يقع في سفرته و على ما يراه و يصادفه من الأمور الغريبة و الأشياء العجيبة "[2].

لذلك سمي 'تخليص الإبريز في تلخيص باريز'، و الإبريز الخالص: هو الذهب المصفى. ونجد الشيخ يضع في المقدمة عنوانا آخر وهو 'الديوان النفيس بإيوان باريس' و الإيوان

[1] سيد حامد النساج: مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا ، دار غريب ، القاهرة ، دط، دت ، ص 80

[2] ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي ، ص 69

مكان متسع من البيت، "هو أول كتاب عصري في مصر، و بالتالي في العالم الإسلامي خلال الأزمة الحديثة، و هو عصري ليس فقط بمحتواه و كذلك بلغته، و أيضا بشكل تأليفه"[1].

و هو كتاب صغير الحجم، لكن محتواه كبير، حيث يقول الطهطاوي:

"فإذا بدا لا تستقلوا حجمه و حياتكم فيه الكثير الطيب"[2].

و الكاتب رفاعة الطهطاوي يتمتع بأسلوب أدبي ظريف، حيث يذكر المواقف و المشاهد، ثم يتبعها حكما و أشعارا وأمثال، تختلف باختلاف ذلك الموقف.

في بداية الكتاب نجد خطبة يثني في بدايتها على محمد علي باشا، يقول فيها :

"أبقاه ربي بخير و عزة وسعادة

بجاه خير البرايا و الآل أهل السيادة"[3].

و يذكر بعدها الشيخ العطار، " أشار علي بعض الأقارب و المحبين، لاسيما شيخنا العطار، فإنه مولع بسماع عجائب الأخبار، و الاطلاع على غرائب الآثار، أن أنبه على ما يقع في هذه السفرة و على ما أراه و ما أصادفه من الأمور الغريبة، و الأشياء العجيبة،

[1] عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة ، ص 25

[2] رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، ص 5

[3] المصدر نفسه ، ص 2

ليكون نافعا في كشف القناع عن محيا هذه البقاع التي يقال فيها عرائس الأقطار، و ليبقى دليلا يُهتدى به إلى السفر إليها طلاب الأسفار"[1].

فكان التلميذ المطيع و الابن المحب و المواطن المخلص لبلده، فأخذ بالنصيحة و صدق القول.

فهذا الكتاب يعد أوفى مصدر مباشر لدراسة البعثة التعليمية المصرية التي أُرسلت إلى باريس، إذ هو ينقل صورة فرنسا في ذلك الوقت و يتحسر على حال العرب، و لم يقبل رفاعة من مظاهر التقدم في الغرب إلا ما رأى له سندا عقلانيا لا يتعارض و الشرع الذي كان يجسده رفاعة بثقافته الدينية مؤكدا ذلك في خطبة الكتاب بقوله: "و لعمر الله أنني مدة إقامتي بهذه البلاد في حسرة تمتعها بذلك و خلو ممالك الإسلام منه ...وقد أشهدت الله سبحانه و تعالى على أن لا أحيد في جميع ما أقوله عن طريق الحق"[2].

كثيرون ممّن مارسوا الرحلة لم يكن تدوينهم لوقائع الرحلة سوى نوعا من الفضول لا يتعدى حدود الاستئناس، هذا ما نجده في رحلة الطهطاوي المدوّنة، فقد أشير عليه بالتدوين، فضلا عن أنه لم يكن بصدد نقل دهشته ، فالدهشة إنسانية و هي المعبر الأول للتقدم، و عامل من عوامل تبديل الحال و السير في ركب الحضارة و ميادينها، بل إن موضوعية الطهطاوي و دهشته لم تأت لمجرد التسلية، بل جاءت مصحوبة بحسرة على الفارق الموضوعي بين

[1] المصدر نفسه ، ص 3

[2] رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز، ص 4

الشرق و الغرب، فاشتملت رحلته على غرض السفر و ثمرته، كان على يقين بأنه أتى للمزج بين حضارته و حضارة الغرب دون أن يفقد الحضارة العربية طعمها و إنسانيتها ومذاقها الخاص، بل الاستزادة و الرقي.

" فإن رحلة الطهطاوي ... هي أول الأصوات التي تتحدث إلى المصريين، و إلى كافة المسلمين ... و قد أعلن هذا الصوت نهاية حصار الظلام على مصر "[1].

رتب الطهطاوي كتاب رحلته بمقدمة فيها عدة أبواب، وضح فيها سبب الارتحال إلى بلاد الإفرنج "التي هي ديار كفر و عناد"[2] على حد قوله، و يضيف قائلا: "البلاد الإفرنجية قد بلغت أقصى مراتب البراعة في العلوم ... و كما أن البلاد الإسلامية برعت في العلوم الشرعية و العمل بها و في العلوم العقلية، و أهملت العلوم الحكمية بجملتها، فلذلك احتاجت إلى البلاد الغربية في كسب ما لا تعرفه "[3].

وقد أورد في المقدمة كذلك حكمة ما زالت مجتمعاتنا تتداولها و هي حكمة تحفيزية من أجل طلب العلم و هي 'أطلب العلم و لو في الصين'، ثم يقدم توضيحا حولها، أن الإنسان إذا أمن على دينه فلا ضرر في السفر.

[1] عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة ، ص 26

[2] رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، ص7

[3] المصدر نفسه ، ص 10

ثم يذكر مدى الحاجة إلى معرفة العلوم و الفنون التي تجهلها بلاده و ضرورة الاطلاع عليها و الاستفادة منها لإطفاء عطش أمته لها، إذ يقول "و هذه الفنون إما واهية في مصر أو مفقودة بالكلية "[1].

و من المؤكد أن هذه العلوم و الفنون سوف تكون باللغة الفرنسية، لذا سوف يكون عمله الرئيسي هو الترجمة، التي هي علم من هذه العلوم و قد كانت تحتل المرتبة الخامسة عشر من بين العلوم التي ذكرها الشيخ الطهطاوي : "يعني ترجمة الكتب و هو من الفنون الصعبة"[2]

ثم يثني على محمد علي لإرسالهم إلى بلاد الإفرنج و تفضيلها على غيرها من البلدان.

ثم ذكر بعض أسماء من كانوا رؤساء هذه السفرة ، ثم المقصد منها، و هو مرام الكتاب، إذ يقول فيه: "في مدة السفر من مصر إلى باريس، و ما رأيناه من الغرائب في الطريق، و مدة الإقامة في هذه المدينة العامرة بسائر العلوم الحكمية و الفنون و العدل العجيب

و الإنصاف الغريب الذي يحق أن يكون من باب أولي في ديار الإسلام و بلاد شريعة النبي"[3].

[1] المصدر نفسه ، ص 15

[2] رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، ص 17

[3] المصدر نفسه ، ص 30

و يحتوي الكتاب على عدة مقالات – ست – و كل مقالة حَوت عدة فصول بادئا من نقطة الانطلاق الإسكندرية ووصفها، ثم مسيرهم في البحر حتى وصولهم فرنسا و نزولهم هناك ومرورهم بمرسيليا حتى استقر بهم الحال في باريس، و هي التي باشر في وصفها وصفا لم يكد يغادر صغيرة و لا كبيرة في النظم و الهياكل و العمارة و العادات و الشرائع

و الفنون وصفا جعل من باريز نموذجا للرقي، و حسن العمارة و موطن الحضارة، من أجل تحريض الهمم و تحفيزها لاقتفاء طريق القوة و التمدن، و عدم جعل الغفلة مانعة عن الأخذ بسنن الترقي.

فهو يبدو من هذا الوصف شديد الانبهار، و قد فضل ألا يذكر في الكتاب إلا ما كان موضع إعجاب، و تجنب الحديث قدر الإمكان عن ما ينفر القارئ العربي، "فيحاول الرحالة رصد كل ما شاهدوه و سمعوه، و سجلوا كل ما تقع عليه أعينهم من مشاهد

و نقلوا ذلك إلى كل من حالت دون رحيلهم "[1].

و يختتم الطهطاوي كتابه بمجموعة من الملاحظات التي دونها بعد عودته إلى مصر، وقدم شكرا للخواجة 'جومار' على مساعداته، و بالدعاء لله أن يغدو كتابه مقبولا لدى الخاص والعام، و أن يوقظ به من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام مفاده: "متع الله مصر و

[1] نوال عبد الرحمن الشوابكة: أدب الرحلات الأندلسية والمغربية ، دار المأمون، الأردن ، دط ، 2008، ج1 ، ص 272

ايالاتها بما أفاضه عليها ولي النعم، من حسن التمدن و العدل وأمد لها أيامه بجاه خاتم الرسل الذي مولاه دل"[1].

"و لكن ربما أعظم مساهمات هذا الكتاب الفريد، أنه الأول في تاريخ التأليف العربي الحديث، الذي سيدعو المسلمين، وقد ترجم هذا الكتاب إلى التركية وعرفه بالعربية قراء خارج مصر"[2].

[1] رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، ص406

[2] عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة ، ص 27

فقد لقي هذا الكتاب اهتماما من قبل الحاكم محمد علي نفسه، الذي جعله من ضمن الكتب التي ينتفع بها طلاب المدارس ، حيث أنه طبع "مرتين في حياة مؤلفه مما يدل على الإقبال عليه، الأولى كانت عام 1834م، و الثانية في عام 1849م، و على أية حال فإن الإقبال على الكتاب كان فيما يبدو قويا، حيث أنه طبع مرة ثالثة في عام 1905م، أي بعد اثنين و ثلاثين عاما من وفاة مؤلفه" .[1]

[1] عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة ، ص 46-47.

وصف الغرب و مقارنتهم بالعرب

يذهب أحد الباحثين إلى عقد مقارنة بين رحلة الطهطاوي و رحلة ابن فضلان فيقول: "وتذكرنا رحلة الطهطاوي 'القرن الثالث عشر الهجري' برحلة ابن فضلان 'القرن الرابع الهجري'، و ما بينهما من تشابه واختلاف ، فكلتاهما قد ابتعثت من قبل الحاكم، إلا أن ابن فضلان ذهب ليعلم أما الطهطاوي فقد ارتحل ليتعلم، و تتصل هذه المقارنة –في رأينا– بين وضعين حضاريين مختلفين ، فابن فضلان المعلم قد عاش إبان حقبة الحضارة العربية الإسلامية الزاهية ، أما الطهطاوي الطالب فقد عاصر اضمحلال تلك الحضارة، والرغبة في إصلاح الوضع الحضاري الذي آلت إليه مصر في ذلك الحين و كان مفتاح هذا الإصلاح في كشف ثقافة الغير المتقدم"[1]

فما يميز هذه الرحلة –رحلة الطهطاوي– أنها تستدعي ذلك الفارق بين مصر خاصة، و العالم الإسلامي عامة، فلم يصف إلا شيئا مفقودا أو معدوما في هذه البلاد، ليؤكد أن الأمر يتعلق بعملية مقارنة بامتياز "فأصبحت المقارنة أساس الوصف"[2]

فإن أغلب ما استوقف رحالتنا هو معالم المدينة الباريسية، فوصفها وصفا شاعريا دقيقا، "و منه فإن أنجح أدب هو الذي يصف بلادا أو شعوبا و مناطق و مناظر، قلما توجد فرص للقارئ كي يزورها و يتجول فيها ، فيجعل كاتب الرحلة قارئه أكثر ارتباطا و جاذبية وتشوقا لقراءة الرحلة"[1] ، مدركا شدة الفجوة بين العالمين.

[1] ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي، ص 183

[2] حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، ص 176

فقارن بين باريس و مصر مقارنة توحي أنه كان يتمنى أن يكون تغيير مصر اقتداء بالنموذج الفرنسي.

فلم يترك الطهطاوي الانبهار ليهزمه بل أسرع ليتعلم لغة القوم ليأمنهم و يعرفهم ويرسم بقلمه أفكارهم، فبدأ تعلم اللغة الفرنسية قبل الدخول إلى باريس حيث يقول : "ابتدأنا في مرسيليا قبل وصولنا إلى باريس و تعلمنا فيها نحو ثلاثين يوما التهجي، ثم لما ذهبنا إلى باريس مكثنا جميعا في بيت واحد، وابتدأنا في القراءة، فكانت أشغالنا مرتبة على هذا الترتيب وهو أنّا لنا نقرأ في الصباح كتاب تاريخ ساعتين، ثم بعد الغداء نتعلم درس كتابة ومخاطبات ومحاورات باللغة الفرساوية، ثم بعد الظهر درس رسم، ثم درس نحو فرنساوي، و في كل جمعة ثلاثة دروس من علمي الحساب و الهندسة"[2].

وقد اتبع شيخ العرب برنامجا مكثفا مكنه في مدة خمس سنوات الظفر بالثقافة والعلوم الفرنسية

وفي مقابل تعلمه الفرنسية ، إلا أنه يفخر بلغتنا العربية مقارنة بالفرنسية، إذ يرى أن لسان العرب هو أعظم اللغات ، ويرى أن اللغة الفرنسية سهلة التعلم ، إذا ما قورنت باللغة العربية "ومن جملة ما يعين الفرنساوية على التقدم في العلوم والفنون، سهولة لغتهم وسائر ما يكملها، فإن لغتهم لا تحتاج إلى معالجة كثيرة في تعلمها، فأي إنسان له قابلية وملكة

[1] مجدي وهبة: الأدب المقارن، دار نوبار، القاهرة، ط1، 1991م، ص 22-23

[2] رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز، ص 262

صحيحة يمكنه بعد تعلمها أن يطالع أي كتاب كان ، حيث أنه لا التباس فيها أصلا فهي غير متشابهة إذا أراد المتعلم أن يدرس كتابا لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبدا فإن الألفاظ مبينة بنفسها وبالجملة ... بخلاف اللغة العربية مثلا فإن الإنسان يطالع كتابا من كتبها في علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائرآلات اللغة"[1].

ويوضح لما الاتجاه إلى باريس بالذات دون سواها من مدن فرنسا، حيث يقول: "ثم إن هذه المدينة من أعمر مدائن الدنيا، ومن أعظم مدائن الإفرنج الآن، وهي كرسي بلاد الفرنسيين، وقاعدة ملك فرنسا"[2].

يلخص الطهطاوي باريس فعلا اذ يقف على كافة وجوهها بعين نقدية مقارنة .

حيث وقف الطهطاوي يشاهد فضل العلوم الطبيعية والرياضية على المدينة وعلى أهلها، فأرجع سبب تقدم المسلمين في العصر العباسي إلى اهتمام الخلفاء بالعلوم ، وربما انشغالهم بها... فالعلم لا ينتشر في عصر إلا بإعانة صاحب الدولة لأهله، "بل من مزاياها أنها تحمل كل إنسان على تعهد تعلمه حتى يقرب من منصب أعلى من منصبه ... وقد ذكر المؤرخين أن مصر في سالف الزمان كانت على هذا المنوال"[3].

وكما أنه معروف أن البلاد الإسلامية تهتم بالعلوم الشرعية نظرا لخدمتها للدين الإسلامي، من أجل العلم بها، ونالت اهتمام العديد من العلماء ، فلم يكن للعلوم العقلية الحظ الوافر من

[1] رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز، ص235

[2] المصدر نفسه، ص 74

[3] المصدر نفسه، ص 142

هذا الاهتمام فظلت بحاجة إلى البلاد الغربية كي تكمل لها الجزء الناقص، "وبذلك تعرف خلو بلادنا

عن كثير منها وأن الجامع الأزهر... كلها زاهرة بالعلوم النقلية، وبعض العلوم العقلية ... والعلوم في مدينة باريس تتقدم كل يوم فهي دائما في الزيادة"[1].

فعلى الإمام الأزهري أن يهتم بمعرفة علوم كثيرة يجهلها، وألا يكتفي بالعلوم الشرعية فقط .

فقد قسم الطهطاوي العلوم كما رآها عند الغرب إلى قسمين :

قسم عام للتلاميذ وهو الحساب والهندسة والجغرافيا و التاريخ والرسم، إذ يقول: "فأولادهم دائما متأهلون للتعلم والتحصيل"[2]، وقسم آخر متوزع عليهم وهو عدة علوم:

العلم الأول : علم تدبير الأمور الملكية : ويتشعب منه عدة فروع ، الحقوق الثلاثة التي يعتبرها الإفرنج: الحقوق الطبيعية والحقوق البشرية والحقوق، وكذلك علم تدبيرالعسكرية، علم القبطانية، والأمور البحرية من المياه وهو صناعة القناطر والجسور والأرصفة الميكانيكة، وهو آلات الهندسة وجر الأثقال وهندسة العساكر وفن الرمي بالمدافع ، فن سبك المعادن لصناعة الأسلحة والمدافع ، علم الكيمياء وصناعة الورق ، فن الطب وفروعه ، فن التشريح والجراحة وتدبير الصحة، علم الفلاحة ، علم تاريخ الطبيعيات وفروعه: مرتبة النباتات،

[1] رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز، ص 237-238

[2] المصدر نفسه ، ص 236

مرتبة المعادن، صناعة النقاشة وفروعها: فن الطباعة و وفن الكتب العلمية، ليخلص إلى أن هذه العلوم المعروفة معرفة تامة لهؤلاء الإفرنج ناقصة

أو مجهولة بالكلية عندنا، لذا فهو يرى أن من جهل شيئا فهو دون من أتقن ذلك الشيء، وكلما تكبر الإنسان عن تعلمه شيئا مات بحسرته، فالطهطاوي يطمح إلى امتلاك العرب لتلك العلوم لذا خاض في شرحها شرحا مفصلا.

وفي سياق الحديث حول العلوم فإن الطهطاوي ينقل صورا للمظاهر المادية تشمل أماكن الفنون والعلوم من أوبرا ومسارح ، "ومظاهر التقدم العلمي ومراكزه ، فيذكر مجامع العلماء في باريس والكليات والجمعيات العلمية المختلفة، والمدارس المتنوعة، وخزائن الكتب والمتاحف العلمية، وبستان النباتات، وحدائق الحيوان للتجارب الزراعية والحيوانية ، والمرصد السلطاني ، ودكاكين الكتبية وخاناتهم ، وكثرة المطابع والتأليف ، وإن كان المقصود من أكثرها الكسب لا النفع"[1]، والكوليج الذي هو عبارة عن مدارس للتعليم يتخرج منه أكاديميون حيث يقول: 'أكدمة الفرنسيس' وهم كبار علماء الفرنساوية كما إذا قيل 'أكدمة مصر' ، والمراد بها الجامع الأزهر ، لأن المراد به ديوان أكابر علماء مصر"[2]، ويذكر من الأمور التي تساعد على التثقيف وفتح العقول والتي تتجسد فيها حرية الرأي ، 'الجرنالات' بالمفهوم الفرنسي .

[1] ناصر عبد الرزاق الموافي : الرحلة في الأدب العربي ، ص 76

[2] رفاعة رافع الطهطاوي : تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، ص245

[3] المصدر نفسه، ص241

وهذا ما يسوقنا إلى الحديث عن الحرية بالمفهوم الفرنسي الباريسي الذي جاء به الطهطاوي، فيعبر عن ذلك قائلا : "من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية، وتقدمهم في الآداب الحاضرة ، وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف"[3]، فكان أن عرف 'الحرية 'الفرنسية 'بالعدل والإنصاف'الإسلاميين ، "هذه النقلة لم تسمح وحسب بتقريب مضمون الكلمة الإفرنجية إلى عقول قرائه قدر الاستطاعة ، بجعلهم يحسون بنبض المفهوم بدل الاكتفاء بترجمة الكلمة بكلمة أخرى مقابلة لها حرفيا ، بل أنها سمحت كذلك بأن يدفع رفاعة عن نفسه مقدما كل اتهام ممكن بالزيغ والضلال أو أنه يستورد الأفكار المضللة من بلاد الكفر والعناد"[1] .

ومن جهة أخرى يوضح قوة الشعب الفرنسي وحقوقه ، وواجبات الحكام التي لا وجود لها في البلاد العربية ثم يبين أن سائر الفرنسيين متساوون أمام الشريعة، بهذا هو ينقل إلى مصر شيئا جديدا لم يعتد عليه شعبها ، فيقول واصفا قاصدا توعية الامة العربية: " الفرنساوية مستوون في الأحكام على اختلافهم في العظم و المنصب و الشرف و الفن " [2] و قبل مغادرته فرنسا اندلعت ثورة 1830م، هي ثورة الشعب الفرنسي على حكومة الملك 'شارل العاشر'، و علق على أسباب خروج الفرنسيين عن طاعة ملكهم من تعدد الأحزاب،

[1] عزت قرني : العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة ، ص 31-32

[2] رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، ص 145

و تشديد الرقابة على الصحف و المطبوعات، و إضراب العمال و غضب الشعب على الحكومة وانتشار رسوم الصور الساخرة ضد الملك للمطالبة بالإصلاح كما لاحظ أن الأسلوب العلمي هو أكثر الطرق للإصلاح السياسي، كما نقل لنا أنماط الحكومة الفرنسية في الديمقراطية، حيث يدافع عن الملك ما يسمى 'ديوان ألبير' أي 'مجلس الأعيان'، و يدافع عن الشعب ' مجلس النواب' أو 'ديوان العمالات' كما يسميه، ليكون في ذلك عبرة لمن يرغب، و تعرف على مواد الدستور التي كان أساسها العدل و المساواة و الإنصاف، حتى إن الدعوى الشرعية تقام على الملك و ينفد عليه الحكم كغيره ، كل ذلك كان من تعمير الممالك و راحة العباد، فلا تسمع من يشكو أبدا فالعدل أساس العمران.

و مما ساعد الشعب و سانده، " ظهور بعض 'كازيطات' الحرية آمرة بعصيان الملك والخروج من طاعته و معددة لمساويه و فرقت على الناس من غير مقابل " [1]

و لا يغفل ما يتصل بمبدأ الحرية – العدل و الانصاف – من ازدهار الصحافة و ما تشتمل عليه من 'الجرنالات' و 'الكازيطات' ، حيث أنها – الجرنالات – تحت تناول سائر الناس ، و في كافة الأماكن العامة و حتى المقاهي.

و من النظم السياسية ينتقل إلى وصف جو باريس الممطر المغيم طيلة الشتاء في غالب الأحيان، وقد كان قبل ذلك قد حدد موقعها الجغرافي بالنسبة لخطوط الطول و دوائر العرض، و ظروفها المناخية التي كانت سببا في تحديد شكل المباني المنحدر السقوف،

[1] رفاعة رافع الطهطاوي : تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، ،ص 311

وشكل الشوارع المبلطة بالحجر و المزوّدة بمجار تحمل الماء إلى البالوعات، و يقارن جوها بحرّ القاهرة قائلا :" وإن كان هواء باريس في الجملة طيبا مناسبا للصحة، و مع أن حرّها لا يصل إلى حرّ القاهرة في الغالب فهو غير مألوف أبدا "[1].

وبهذا هو شديد التعظيم لبلاده العربية، و الحب لوطنه يفضله على سائر الأوطان ، فعند حديثه عن نهر السين، يثير في خاطره نهر النيل الذي يعدّ من رموز الجمال و البهاء لمصر، فيصفه بفخر واعتزاز، "و شتان أيضا بين ماء النيل و السين من جهة الطعم وغيره، فإن ماء النيل لو كانت العادة جرت بترويقه قبل استعماله ، كما هو العادة في ماء نهر السين لكان من أعظم الأدواء"[2]

" إن من أبرز ما يبدو من سمات رفاعة الطهطاوي في هذه الرحلة، حبه الكبير لوطنه مصر ، و رغبته العظيمة في نهضته و يبدوهذا الحب المقيم في قلبه من خلل الموضوعات التي تعمّد تعريف أهله بها "[3]

و يصل به حب الوطن و الإخلاص له إلى رغبته الكبيرة في نهضته ورقيّه من أجل الوصول إلى أعلى مراتب الحضارات المتقدمة، حيث أنه ما يشاهده على أرض واقع باريس يتمنى تحقيقه على أرض وطنه،إذ يقول : " فلو تعهدت مصر و توفرت فيها أدوات العمران

[1] رفاعة رافع الطهطاوي : تخليص الإبريز في تلخيص باريز ،ص 82

[2] المصدر نفسه ، ص 85

[3] ناصر عبد الرزاق الموافي : الرحلة في الأدب العربي ، ص 77

لكانت سلطان المدن و رئيسة بلاد الدنيا ، كما هو شائع على لسان الناس من قولهم مصر أم الدنيا"[1].

أما بخصوص العادات الاجتماعية في المنازل، يتطرق إلى وصف غرف الاستقبال في بيوت الفرنساوية وانبهاره بجدران المنازل المزيّنة بورق منقوش، و أرضية بخشب مصقول، و السجاجيد النفيسة واحتواء كل منزل على مكتبة تضم أرقى أنواعا الصحف و الكتب ، كما أثنى على ربة المنزل أو سيدة البيت، كيف تقبل لتحية الضيف أنيقة نضرة وسط أثاث يماثلها في الجمال، لا يملك إلا أن يقارن بينها و بين غرف الاستقبال في بيوت القاهرة معلّقا بقوله : "فأين هذه الأرض بما احتوت عليه من اللطائف من أرضنا التي يحيا فيها الإنسان بإعطاء شيّق الدّخان من يد خادم في الغالب قبيح اللون"[2].

ويذكر أن الفرنسيين لا يشغلون السودان كخدم عندهم، لأن الجارية السوداء في نظرهم غير نظيفة.

و يقوده ذلك إلى الحديث عن أشكال النظافة في باريس التي تذكره بأشكال الوساخة في مصر.

و يقارن بين اتساع الميادين النظيفة ووساختها في مدينته التي فارقها، "و في هذه المدينة عدد فسحات عظيمة تسمى المواضع يعني الميادين، كفسحة الرّميلة بالقاهرة، في

[1] رفاعة رافع الطهطاوي : تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، ص 86

[2] المصدر نفسه ، ص 154

مجرد الاتساع لا في الوساخة "[1]،هنا يعقد تشبيها تتخلله حسرة فلفظة ' الوساخة' تحز في نفس القارئ كثيرا ، و ربما قصدها الطهطاوي من أجل تحريك النفوس و الاتجاه نحو الأفضل.

وإلى جانب الحديث عن النظافة يخصص فصلا كاملا يتحدث فيه عن عادات الطعام في باريس، " ذلك لأن الطعام له و لا شك أهمية تتعدى كونه وسيلة لتغذية الجسم بغية الحياة، ولأن الطعام يرتبط أيضا بالبيئة و الاقتصاد، و بالدين و المعتقدات الشعبية، وربما بكافة مظاهر الحياة الإنسانية المادية و الفكرية و على هذا الأساس يشكل الطعام مركبا حضاريا"[2]، فمثل إعجابه بآداب الأكل، و دهشته بنظام المائدة و ترتيبها بالأواني غير المعتاد عليها، و طريقة تقديم الطعام، و تعرفه على سفرة جديدة لم يعتد عليها في بلده حيث من عادة أهل بلده الجلوس على السجادة، وإعجابه بخبز الحنطة الذي يطحن في طواحين الهواء و الماء و يخبزه الفران و يبتاعونه من دكانه نظرا لانشغالهم بما هوأهم من صناعة الخبز، ولاحظ تنوع الأطعمة ولو عند الفقراء، يورد إلى جانب ذلك اشمئزازه من بعض طعامهم الذي لم يطب له، مثل طريقة ذبح الثيران، إذ يقول عنها : "يضربونها بمقاطع حديد في وسط رأسها فتدوخ"[3].

[1] رفاعة رافع الطهطاوي : تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، ص 91

[2] حسين محمد فهيم : أدب الرحلات ، ص 129

[3] رفاعة رافع الطهطاوي :تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، ص 160

ويتحدث كذلك عن العادات الصحية التي لم تعرفها مدينته في ذلك الوقت يقول: "ولنذكر نبذة من فن قانون الصحة و تدبير البدن حتى تتم فائدة هذه الرحلة ، و هذه نبذة ترجمتها في باريز لقصد استعمال جميع الناس بمصر لها، لصغر حجمها فهي وإن كانت تخرجنا عما نحن بصدده إلا أن منفعتها عظيمة و ثمرتها جسيمة"[1]، و يضعها الطهطاوي تحت عنوان 'نصيحة الطبيب'

و يلخصها في ست مواد، و هذا يدل على حرصه الشديد في نقل كل ما يعود بالنفع على أمته.

و من خلال معايشته اليومية لسكان مدينة باريس تبين له اتصاف شعبها بشدة ذكائهم و تأصل الثقافة فيهم، و توقهم إلى الفهم و الاستطلاع و الوقوف على كل طريف.

و تحدث الطهطاوي عن طبيعة الحياة الاجتماعية لأهل باريس و ضروبهم الأدبية و الفنية ، و عن صفاتهم و طبائعهم من حب للمعرفة و حب للتغبير و حب المغامرة و إكثارهم من الرحلات و معرفة الغرباء ، و الاختلاط بهم و حب العمل حيث يقول: " و سائر الخلق بباريس يحبون الكسب و التجارة سواء الغني أو الفقير"[2]، غير أنه لاحظ تبذيرهم للمال في طلب اللهو، إضافة إلى احترامهم للنساء و تقديرهم لهن، لكن حسب وصفه الرجال عبيد النساء يثقون بهن و يدللوهن، فعن النساء يقول: " إذا دخل بيت صاحبه فإنه يجب عليه أن

[1] رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، ص 187

[2] المصدر نفسه ، ص 422

يحي صاحبة البيت قبل صاحبه و لو كبر مقامه ما أمكن، فدرجته بعد زوجته أو نساء البيت، و يرى أنهم أقرب للبخل من الكرم و الحقيقة أن الكرم عند العرب"[1]

و إذا كان يرى أن اضطراب الأخلاق نتيجة اجتماعية طبيعية لبيئة المدن مثل باريس، و بجانب عقائدهم فهم تقدميون تطوريون يؤمنون بالعقل و يرفضون ما لا يقبله العقل من الخوارق، ويأخذ عليهم قولهم بأن الحضارة في المجتمع الراقي تؤدي دور الدين في المجتمع البدائي، ويستنكر رفاعة إنكار بعضهم القضاء و القدر ، ثم راح يصف مظهرهم من بياض البشرة لعدم اختلاطهم بالزنوج، إلى رقة نسائهم اللطيفات اللواتي يشاطرن الرجال متعة النزهة و الرقص فيخوض في الحديث عن جمال نساء باريس و أزيائهن و بعض عاداتهن، حيث يقول: " و نساء الفرنساوية بارعات الجمال و اللطافة ... وملابس النساء ببلاد الفرنسيس لطيفة بها نوع من الخلاعة"[2]،إلى جانب ذلك يقول: " و الغالب أن لبسهم ليس له زينة و إنما هو غاية النظافة"[3]

لكنه يمتدح عند الفرنسيين وفاء الوعد وعدم الغدر وقلة الخيانة، إلى جانب قلة عفاف نسائهم و عدم غيرة الرجال إذ يقول: "و من خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم، وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة"[4]، و يشيد بكثرة الفواحش و البدع على

[1] رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، ص 97

[2] المصدر نفسه ، ص 165

[3] المصدر نفسه ، ص 165

[4] المصدر نفسه ، ص102

الرغم من أنها – فرنسا – أحكم سائر بلاد الدنيا ، فقد وصل بهم الضلال إلى اعتبار عقول علمائهم أعظم من عقول الأنبياء، و لم يفته استعراض مظاهر احتفاء الباريسيين بالفن فعدد أنواع التياتر الباريسية من 'الأوبرا' إلى 'السيرك' و كذلك 'البال' أي 'حفلة الرقص' و أعجبته بعض الرقصات التي يشترك فيها الرجال و السيدات وهم جميعا في أفخر حللهم و زينتهم، وكأنهم يؤدون حركات رياضية راقية، ومن خلال طوافه بمدينة باريس، وصف لنا حدائقها وشوارعها من 'الشانزليزية' و 'البولفار' حيث ينتشر العشاق ليلا ، حتى أنه ليأخذه الطرب فيخرج من أعماق ذاكرتهم أبياتا من الشعر القديم عن الليل و الغرام، كذلك وصف الحمامات لراحة الأبدان ومدارس الرياضة البدنية كطرق طبيعية للعناية بالصحة ، فيقول : " و كانوا أشد الناس مسارعة لما فيه نفع للبدن كالحمامات و المحام الباردة المياه، و ترييض الجسم وتعويده على الأمور الشاقة"[1]،إضافة إلى ولوعهم بممارسة رياضة السباحة.

و أثناء تجوله بمدينة باريس عدد لنا الجمعيات الخيرية، و دورها في فعل الخير ببناء المستشفيات و ملاجئ اللقطاء و الأيتام و الشيوخ ' المسنين'، و جرحى الحرب، و مكاتب إغاثة المنكوبين، و مراكز الإسعاف الأولية، لذلك يقول : "و معلوم أن مدينة باريس من أعمر المدن و أكثرها صناعة و نجامة، فلذلك كثرت مارستاناتها و مواصفها المصنوعة لفعل الخير"[2] ،

[1] رفاعة رافع الطهطاوي : تخليص الإبريز في تلخيص باريز ،ص 181

[2] المصدر نفسه ،ص 213

و من مظاهر فعل الخير أيضا يقول : "و من فعل الخير أنهم يجمعون عند الحاجة أشياء لمن نكبه الزمان حتى يصير بها غنيا"[1].

و ما يلفت الانتباه في التخليص الدهشة التي تصيب المتخلف من مظاهر التقدم ، و كيف أنها تظل حالا مقترنة بالإعجاب الذي تعجز الكلمات عن التعبير عن خصوصيته الشعورية، حيث النظر في المظاهر المادية التي تشمل العمارة، و تخطيط الشوارع، و الميادين والمتنزهات،

و الفنادق و العربات ، فينبهر بالعمران قائلا: "فهي أعظم عمرانا و أدبا، وإن كانت عماراتها غير جيدة المادة فهي جيدة الهندسة و الصناعة"[2]، لكنه يلاحظ نقص حجر الرخام الذي يميز العمارة الحديثة.

و تجاوز ذلك إلى الحديث عن المقاهي الفرنسية التي تمتلئ جدرانها بالمرايا العظيمة التي رآها للمرة الأولى ، فظهر به رونق عظيم واندهاش طريف ، و الوصف دال على أحوال الدهشة، ووقفة رفاعة المشدوهة أمام مرايا مقهى مرسيليا وقفة دالة بهذا المعنى، فهي هزة وجودية انتابته و هو في بداية الطريق ، أرهصت بحركته اللاحقة التي أسفر بها برنامجه التجديدي بعد أن تلقى لوامعه في لحظة فريدة.

[1] رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، ص 217

[2] المصدر نفسه ، ص 151

وقد انبهر لمشاهد الفن و الجمال في باريس ، فتناول وصف ملاهيها وقاعة التمثيل بها و مراحل اللعب، و لمس خلال إقامته هناك خمس سنوات مدى حب سكانها للعمل والسعي إلى الكسب.

فلم يفته الجانب الاقتصادي في الحياة الباريسية فاستعرض البنوك و شركات التأمين كمؤسسات مالية و سيطة تسهم في النشاط الاقتصادي، وعدد أنواع المصانع، و فوائد المعارض، و المواد التي يدرسها الطلبة في معاهد التجارة، و العوامل التي ساعدت في رواج النشاط السياسي و الاقتصادي، و على الرغم من أن الطهطاوي كان يهدف الوقوف على العجيب المدهش في عمران الفرنجة، إلا أن نظرته الإصلاحية كانت بين الحين و الآخر تضع اليد على عوامل الانحراف، و ظل معتزا بأفضلية الإسلام ، فالطهطاوي كان عميقا في الوصف موضوعيا إلى أقصى حد حاول أن يركز على ما هو مفقود عندنا، و ما هو السّر في تقدم العمران الإفرنجي، ظل الطهطاوي يسلك طريق المقارنة بين حال الفرنسيين الباريسيين و أحوال العرب المصريين، فيستحسن بعض ما عندهم ويمتدح بعض ما عند العرب، و يتمنى الأخذ بالأفضل منهم، ومنحهم الأفضل مما عندنا، فما لخصه خلال إقامته الباريسية القصيرة عن أحوال التمدن و العمران في عاصمة الفرنسيين بمنهجه المقارن، بقي مرجعا لكل من أراد الولوج إلى عالم باريس.

حركة الترجمة و التعريب و الإصلاح

إن بداية التفكير بأهمية العلم و التفكير العلمي في العصر الحديث، لم يكن نتاجا أو استمرارا لتقاليد الفكر العلمي العربي، بل كان ثمرة التحدي الذي طرحه التوسع الاستعماري الغربي من خلال حملة نابليون ، فقد وضع العرب أمام مرآة، عصرهم فاكتشفوا درجة الفوات فكان لابد من الطموح و التطلع لامتلاك سر تقدم و تفوق أوربا الذي هزم تأخرهم.

فكان لابد من الاحتكاك بالغرب و الاقتباس من أفكاره و نظمه و علومه و مبادئه التي أثّرت في المجتمع العربي،"على أن لهذا التأثير وجوها أبرزها اثنان : تغيير الإنسان العربي من جراء تلقيه هذه الحضارة الجديدة، ورده على ما تلقى ، ثم تغير مظاهر الحياة و المجتمع "[1]

"و كان من الطبيعي أن يتأثر بعض رواد الفكر العربي بالثقافة الغربية،فمنهم من حمل لواءها حتى آخر لحظة في حياته مثل رفاعة الطهطاوي "[2]

و نجد أن تلك الصورة التي نقلها الرحالةن انعكست في صورما في برامج و عملية التخطيط لمشاريع تحديث البلاد.

" فكان الطهطاوي واحدا من ألمع العقول العربية التي اتصلت بالفكر التحرري الغربي و أعمقها، فلقد استطاعت أفكار عصر التنوير الفرنسي أن تترك أثرا لا يمحى في ذهنه، و من خلاله على أذهان المصريين "[3].

[1] نازك سابايارد: الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة ، ص 9

[2] بثينة علي مرزوق: الأدب السياسي والحداثة في الشعر العربي، مركزالإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، دط، 2006،ص3.

[3] سلمى خضراء الجيوسي: الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ص 35

"فمن وراء صورة فرنسا ، كما وصفها الطهطاوي نستشف صورة مصر و كيف يمكن أن تتبدل، لقد سجل انبهارا بكثير من معالم الحضارة الغربية، و لكنه أوضح في الوقت نفسه تحفظه– و ذلك في إطار تربيته الدينية – على الكثير من عادات و أخلاقيات الفرنسيين "[1].

فالطهطاوي نفسه يتحدث حين الرجوع من باريس عن تحقق أهداف الرحلة، حينما يقول تحت عنوان ' في رجوعنا من باريس إلى مصر'، و يعتبرمن أوائل رواد ترجمة اللغة الأوروبية إلى اللغة العربية في العصر الحديث حيث أنه " لم يتخصص في الترجمة من بين جميع المبعوثين أحد إلا رفاعة الطهطاوي "[2] ،"إنه وجد اتساعا كبيرا في المعارف التي قدمت الغرب، و طورت حياته فعرب ما رآه جديرا بتقدم وطنه"[3]، و هذا من خلال احتكاكه بعلماء العرب و تعرفه على فكرهم و علومهم و البحث في أسباب ازدهارهم الحضاري ، حيث يقول يؤسف عز الدين في هذا الصدد: " لأن في نقل علوم الغرب خير وسيلة لرفع المستوى العلمي و الفكري لبلاده ليفتح الأذهان و ينمي المدارك، بنشر علوم الغرب بين أبناء وطنه"[4].

وقد وجد الطهطاوي عناية خاصة من قبل محمد علي و رغبته الشديدة في التطوير و النهوض ببلده ، هذا و لم يندفع – محمد علي – في حركته الإصلاحية نحو الغرب

[1] ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي ، ص 183

[2] محمد حسن عبد العزيز: التعريب في القديم والحديث، دار الفكر العربي ، القاهرة ، دط ، 1990م، ص 161

[3] يوسف عز الدين: رفاعة رافع الطهطاوي والتعريب ، ص 229

[4] المرجع نفسه ، ص 229

اندفاعا كليا ، بل حاول أن يوائم بين حاجات مصر و تراثها الشرقي، و ما يريد أن يستورده من إصلاحات و نظم و علوم غربية ، لقد حاول أن ينقل الغرب إلى مصر ليحقق مثله العليا في الإصلاح، ولكنه لم يحاول البتة أن ينقل مصر إلى الغرب ، بل احتفظ لها بروحها و تقاليدها "[1].

فقد طلب من أعضاء البعثات بعد عودتهم إلى وطنهم أن يترجموا كتب العلوم التي درسوها في أوربا و أن يكوّنوا همزة الوصل بين الثقافة العربية و الأوربية، فقد اقترح رفاعة الذي كان قد عاد من باريس، و رأى مدينة الغرب عن كثب اقترح إنشاء مدرسة الألسن لتكون ملتقى لثقافة الشرق بالغرب، و يمكن عن طريقها إعداد مترجمين، للمصالح العامة المختلفة، يقومون بترجمة الكتب في العلوم المختلفة، ونقل التراث العلمي الغربي إلى مصر، و قد كانت أبرز تمثيل للتعريب، حيث أشرف عليها من الطلاب من يتقنون العربية والفرنسية، ووضع في منهجها دراسة الفرنسية و الإنجليزية و التركية و الفارسية و الإيطالية. " أنشئت في أوائل عام 1835م باسم مدرسة الترجمة، ثم غير اسمها فأصبح مدرسة الألسن، وفي عام 1839م اكتملت المدرسة و أصبح بها خمس فرق وعين المتقدمون من أول فريق تخرج منها عام 1839 م مدرسين للغتين العربية و الفرنسية في نفس المدرسة " [2]

[1] محمد حسن عبد العزيز: التعريب في القديم والحديث، ص 159-160

[2] المرجع نفسه، ص 161

و يرجع الفضل في ذلك إلى همة الطهطاوي الذي استطاع بموازاة محمد علي تغيير وجه الحياة الثقافية في مصر ، خاصة و أن جهوده خلال إدارته هذه المدرسة ، استمرت ما يقرب من خمسة عشرعاما لم تعرف الكلل، فإلى جانب عمله الإداري ، كان يقوم بالتدريس لطلاب المدرسة و يشرف على قلم الترجمة و يصحح و يراجع الكتب التي يترجمها تلاميذه، و من أجل رفع مستوى طلابه، حيث أن رفاعة و تلاميذه تثقفوا ثقافة موسوعية، و لم يعرفوا التخصص في ترجمة علم بعينه، بل كانوا يستطيعون الترجمة في أي علم من العلوم، " وقد خرّجت المدرسة في أثناء تلك الفترة سبعين مترجما، وقدّر أحد الباحثين الكتب التي ترجمها خرّيجوا المدرسة بنحو ألف كتاب... و مهما كان عدد الخريجين أو عدد الكتب التي ترجمت فقد أشاع رفاعة في هذا الرعيل قبسا من روحه، و نفحة من نشاطه، فكانوا أركان النهضة في عهد محمد علي، ثم كانوا القائمين على إحيائها و الإشراف عليها في عهد إسماعيل"[1].

يبدو أنه لا مفر من التأكيد على أن الترجمة عصب الحياة الحديثة، و أداة اتصال دولي وحضاري ، و أننا كعرب ننتمي إلى أمة متخلفة هي أشد ما تكون بحاجة إلى عمليات ترجمية و تعريبية واسعة و عميقة لكثير من العلوم، التي قد لا يتوفر منها إلا القليل باللغة العربية و أن العرب كانوا يوما من الأيام يحترمون ترجمة العلوم احتراما قل نظيره ، إذ تسبق حركة الترجمة دائما حركة التأليف ، حيث أن الترجمة تمثل الهوة القائمة بين الشعوب الأرفع حضارة و الشعوب الأدنى حضارة فهي وسيلة لإغناء اللغة و تطويرها و تحديثها.

[1] محمد حسن عبد العزيز: التعريب في القديم والحديث، ص 162

و قد كان رفاعة المثال الذي يقتدى به في عملية الترجمة ، "إذ كان يضع في أول الكتب التي يترجمها قاموسا صغيرا لشرح ما ورد فيه من ألفاظ غريبة، و دعا غيره من المترجمين إلى أن يقتدوا به، و كان غرضه من هذا أن يجتمع من تلك القواميس قاموس علمي كبير مشتمل على سائر غريب الألفاظ المستحدثة التي ليس لها مرادف أو مقابل في لغة العرب أو الترك ، كانت طريقة رفاعة في هذا القاموس أن يكتب اللفظ بحروف عربية مراعيا طريقة نطقه باللغة الفرنسية، ثم ينص على كيفية نطق هذا اللفظ بالطريقة الأزهرية القديمة ، ثم يشرح معنى اللفظ بجملة أو جمل وفقا للظروف "[1].

و تم ترجمة مئات الكتب من الفرنسية للعربية ، في مختلف مجالات الثقافة والمعرفة، كما أن أجزاء كبيرة من الثقافة الفرنسية تم نقلها إلى اللغة العربية فأصبح هناك بفضل الشيخ رفاعة مكتبة عربية مترجمة عن الفرنسية، و هذه المكتبة كانت الجسر التي مضت عبره أمواج المدنية و الحضارة الجديدة، و العرب و إن كانوا حريصين كل الحرص على التمسك بثقافتهم و لغتهم، و كانوا حريصين على تطوير هذه الثقافة و تجويد هذه اللغة فلهم باستمرار أن يستفيدوا من ثقافات الشعوب الأخرى ، و أن يأخذوا منها ما يصلح لهم ويصلح لبناء مجتمعاتهم.

لذلك يؤكد أحد الباحثين على أن " الغرب جزء من الإنسانية، و حضارة العصر هي حضارته و لا بأس أن نتأثر به و نأخذ منه و نتعرف إليه صحيح أنه يحاول أن يغلبنا على

[1] محمد حسن عبد العزيز: التعريب في القديم والحديث، ص 168

أمرنا و يستعمرنا إلا أنه من الصحيح أيضا أننا في علاقتنا به على طرفي نقيض نحتاج إليه و نهرب منه و نرفضه، علينا أن نتعلم علمه لنحاربه به، و مهما أوغلنا في هذا العلم فعلينا ألا نأخذ منه إلا ما يفيدنا، و لا يتعارض مع وجودنا و شخصيتنا، يجب أن يبقى ثمة فاصل مهما كبر وصغر بيننا وبينه "[1].

وقد نالت المرأة حظا من مشوار رفاعة في التعريب " فهو أول من نادى بتعليم المرأة و تثقيفها، ووضع كتابا مشتركا لتثقيف البنات و البنين على سواء و سماه المرشد الأمين للبنات والبنين"[2]

فقد أثر فيه مدى انفتاح المرأة الفرنسية و ما تحظى به من الرعاية و الاهتمام والتقدير و الاحترام ، و ظل يكتب لصالح المرأة و تعليمها و نهوضها من الأغلال التي تقيد حركتها على النطاق الاجتماعي و الاقتصادي و العلمي ، و يحاضر و يترجم داعيا إلى تحرير المرأة إلى غاية سنة 1873م، حيث أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات.

واهتم كذلك بتعريب القضايا التي تتعلق بالحرية، و أكد على المساواة لما رأى من التساوي في المجتمع الفرنسي بين أفراد المجتمع، فالمساواة مبدأ من المفروض نحن كمسلمون أولى بتطبيقه.

[1] نعيم اليافي: حركة الإصلاح في عصر النهضة ، دار الشجرة ، دمشق ، ط1، 2000م، ص 49

[2] عمر الدسوقي : في الأدب الحديث ، ص 34

إذ " يمكننا القول بأن بذرة الإصلاح الحقيقية قد زرعت في نفسه و بدأت تأخذ حظها من النمو الذي صادف مناخا طيبا طول خمس سنوات عاشها في بلد الحرية، و كان إعجابه شديدا بكثير من مظاهر الحياة فيها ، فصمم على اطلاع مواطنيه على هذه المظاهر تنبيها لأذهانهم على آفاق الحياة الحقيقية المتقدمة و حثا لهم على تطلبها و التطلع إلى تحقيقها في بلادهم ، و من هنا كان توفره وهو عضو البعثة في الترجمة على ترجمة أجزاء من الدستور–الشرطة– الفرنسي "[1]

إضافة إلى أنه و رفاقه و تلاميذه "أول من نقل القوانين الحديثة عن الفرنسية و هي المعروفة بالكود الفرنسي طبعت بمصر عام 1283 هـ – 1866 م "[2].

فمشروع الإصلاح و النهوض من خلال التعرف و النقل و الإعجاب حيث أن رفاعة كان يرى في فرنسا مستقبل مصر ، لقد عرّف المصريون و العرب بما خبره في بلاد الفرنسيين من العادات و التقاليد و الإدارة و السياسة و الثقافة و الفنون و سائر مظاهر الحياة، و قد أراد لهذا العمل اطلاع أمته على الفرق بين أوضاعها السياسية و بين نظيرتها لدى الإفرنج التي يجب علينا أن نعمل بكل طاقتنا للحاق بها.

" إن اعتماد رفاعة على التعريب في نقل علوم الغرب، و أفكاره و آدابه، كان السبب المباشر في نشر الوعي و اليقظة الفكرية و بقي طول حياته مهتما به سواء في الكتب

[1] ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي، ص 74

[2] جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ، ص 272

المعرّبة أو في مقالاته في روضة المدارس، أو عندما أشرف على الوقائع المصرية، وإدارته قلم الترجمة أو مدرسة الألسن، و لم تشغله الأعمال الإدارية الكثيرة التي عهدت إليه عن التعريب "[1].

فرسم الشيخ رفاعة خطط المستقبل للأجيال اللاحقة رغم ما واجهه من معارضة، و محاولة لكسر العزيمة، من قبل أهل السلطة و الحكم ، إلا أن عزيمته و إرادته كانت فوق كل شيء "فلم يكتف بعملية الإصلاح بواسطة القرارات و هو معزول في مكتبه، فقد كان يقوم بمهمة التفتيش على المدارس و مراقبة سير العمل بها ، و من أجل هنا جاءت عملية إصلاح البرامج الدراسية من صميم الواقع و ليس من خيالات العزلة "[2]

فالنهضة بالنسبة له تتمثل في عملية الإبداع و ليس في عملية الإتباع، في عملية التجديد وليس في عملية التقليد، و بهذا الاتجاه الإبداعي للاستفادة من كل أسباب الحضارة الأوربية و الفرنسية منها بشكل خاص ، كان الطهطاوي في طليعة الرواد الذين قاموا بعملية الاكتشاف الكبرى في الحياة الجديدة للمجتمع المصري و للمجتمع العربي أيضا.

فالرحلة كانت بمثابة المحطة الأولى في قيام إصلاحات حتى لو لم تكن حققت حلم المصلحين، لكن تحديث البلاد على مستوى النظم الإدارية، و إقرار الدستور، و القوانين،

[1] يوسف عز الدين: رفاعة رافع الطهطاوي والتعريب ، ص 234

[2] مجموعة من الباحثين: رفاعة الطهطاوي ، ص 90-100

وهيكلة الاقتصاد و النظام التربوي، و الصناعة، و الجيش، ساعد العالم الإسلامي و العربي الولوج و لو بصورة غير كاملة إلى العالم الحديث.

قائمة المصادر والمراجع :

المصادر:

1-القرآن الكريم.

2-رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز، موفم للنشر، الجزائر، دط، 1991م .

المراجع :

1- إبراهيم السعافين وآخرون : أساليب التعبير الأدبي، دار الشروق، عمان ، دط، 2000م.

2-أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب الحديث للمدارس الثانوية والعليا، دار النهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، د ط، د ت.

3- أحمد هيكل: تطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1994م.

4- بثنية علي مرزوق: الأدب السياسي والحداثة في الشعر العربي ، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية ، دط،2006م.

5- جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبةالحياة، بيروت، ط2، 1978م، ج4.

6-حامد حفني داود: تاريخ الأدب الحديث _ تطوره_ معالمه الكبرى_ مدارسه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط،1993م.

7- حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة 78، الكويت، دط، 1989م.

8- حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1983م.

9-سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، 2009م.

10- سلمي خضراء الجيوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ت عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2000م، ط2، 2007م.

11- سيد حامد النساج ، منشورات كتب الرحلة قديما وحديثا ، دار غريب ، القاهرة ، دط، دت.

12- شوقي ضيف: فنون الأدب العربي"الفن القصصي"، دار المعارف، مصر، ط1، 1956م.

13- صلاح زكي أحمد: أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، ط1 ، 2001م.

14- عباس بن يحي: مسار الشعر العربي الحديث والمعاصر، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، دط، 2004م.

15- عز ت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، د ط، 1986م.

16- عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث: تاريخا و أنواعا وقضايا وأعلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1995م.

17- عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، دار الفكر، القاهرة، ط8، د ت، ج1.

18- فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، الدار العربية، القاهرة، ط1-2، 2002م.

19- كاظم حطيط: دراسات في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، د ط، د ت.

20- لويس شيخو: تاريخ الآداب العربية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، دط، 1910م، ج2.

21- مجدي وهبة: الأدب المقارن،دار نوبار، القاهرة، ط1، 1991م.

22- مجموعة من الباحثين: رفاعة الطهطاوي، نوابغ العرب، دار العودة، بيروت، ط1، 1975م.

23- محمد حسن عبد العزيز: التعريب في القديم والحديث، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د.ط ، 1990م.

24- محمد عبد المنعم خفاجي: دراسات في الأدب العربي الحديث و مدارسه، دار الجيل، بيروت، دط، 1992م، ج1.

25- نازك سابا يارد: الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، دار النشر نوفل، مصر، ط2، 1992م.

26- نجم الدين الحاج عبد الصفا: الشعر العربي والاتجاهات الجديدة في عصر النهضة الأدبية، نادي الأدب، دط ، دت.

27- نعيم اليافي: حركة الإصلاح في عصر النهضة ، دار الشجرة ، دمشق ، ط1، 2000م.

28- نوال عبد الرحمن الشوابكة ، ادب الرحلات الأندلسية والمغربية ، دار المأمون ، الأردن، دط ، ، 2008م، ج1.

29- يوسف عز الدين: رفاعة رافع الطهطاوي والتعريب، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة ع 90، نوفمبر، 2000م.

30- وليم الخازن: تباشير النهضة الأدبية، دار العلم للملايين ، بيروت، ط1، 1993م.

كلمة شكـــــــــر

نحمد الله عز وجل الذي أنعمنا بنعمة الإسلام وهدانا بمعنى السلام

و الذي زرع في قلوبنا محبته وطاعته فهو القادر الحكيم الله الواحد

– فلك الشكر كله والحمد كله -

حمل الرسالة وبلغ الأمانة إلى الرجل الصادق في التاريخ وأنبل رجل عرفته الأمة الإسلامية جمعاء -إلى الرسول عليه الصلاة والسلام- وكما قال: من لا يشكر الناس لا يشكر الله

نشكر الأستاذ المشرف **تيس ناصر محمد الحسني** على الاهتمام والمتابعة والتوجيهات القيمة خلال إعداد هذه المذكرة وكل أساتذة قسم اللغة العربية

و كل من علمنا حرفا وأنار لنا دربا..

و كل من ساهم في هذا العمل من قريب أو بعيد

مدخل:

النهضة والرحلة

النهضة العربية الحديثة وعواملها

الرحلة في الأدب العربي [نشأتها وتعريفها]

النهضة العربية الحديثة وعواملها

" ليس للنهضة العربية الحديثة حدودا واضحة متفق عليها، بل هي تيار متصل، بعيد الجذور، كثير الروافد، يختلف اتساعا وتأثيرا وأهمية في البلدان التي ورثت حضارة العرب، وانتظمتها لغة الضاد وشكلت العالم العربي الحديث، والنهضة الأدبية مرتبطة بالنهضة الاجتماعية والثقافية، وبمدى انفتاح البيئة التي تعيش فيها على سائر البيئات قريبة وبعيدة، فالنهضة الأدبية وجه من وجوه الحضارة العربية وعنصرا أساسي من عناصرها، تفاعلت معها وكانت رافدا من روافدها المتميزة "[1].

" كان السبب في تسمية هذا العصر بعصر النهضة ، هو أن الأدب العربي – شعره ونثره – نهض في هذا العصر ، في موضوعاته وأفكاره وصوره وأساليبه ولغته، فصار أدبا قويا مزدهرا، يختلف في شكله ومضمونه عن الأدب في العصر العثماني الضعيف المتهالك"[2].

" وهذه النهضة تعتمد على قاعدتين عريضتين وهما:

الأولى: الاتصال بالحضارة الأوروبية المزدهرة.

الثانية: الاتصال بالتراث العربي في عهود قوته.

[1] وليم الخازن: تباشير النهضة الأدبية، دار العلم للملايين ، بيروت، ط1، 1993، ص11.
[2] نجم الدين الحاج عبد الصفا: الشعر العربي والاتجاهات الجديدة في عصر النهضة الأدبية، نادي الأدب، د ط ، دت، ص2.

وقد تم الاتصال بالحضارة الأوروبية بوسائل كثيرة، ولكن أهمها الحملة الفرنسية وما أعقبها من نهضة تعليمية بدأت في عهد محمد علي، وسارت على نهج أوروبا وعلومها[1].

وقد صاحبت هذه النهضة عدة عوامل يلخصها عباس بن يحي فيما يلي: أولا؛ الاحتكاك بالغرب الوافد "وتمثل في حملة نابليون بونابرت على مصر (1798م) التي يعد دارسون كثر تاريخها مؤشرا على الانتباه لابتداء النهضة العربية الحديثة"[2] ، فعلى الرغم من أن هذه الحملة كانت تحمل أهدافا استعمارية ، إلا أنها أفادت مصر والعالم العربي بما وصل إليه الغرب من تقدم وتطور وحضارة.

أما العامل الثاني فتمثل في البحث واستيراد المعرفة من خلال الانطلاق نحو الغرب، "كان الفضول والدهشة التي خلفتها الحملة الفرنسية، وكذلك الاستعمار الفرنسي للجزائر (1830م)...أهم الحوافز على ضرورة استكشاف الغرب...وكانت الرحلة إلى الغرب نموذجا حيا لهذا الاستكشاف"[3].

ولعل أبرز هذه الرحلات رحلة رفاعة رافع الطهطاوي (1801-1873م) الجسر الذي عبرت عليه الأمة العربية من أجل الوصول إلى الحضارة الجديدة (الغربية) ، فرحلته إلى فرنسا ضمن بعثة علمية رسمية (1826-1831م)، تعتبر من أهم الآثار الأدبية والفكرية التي فتحت أبواب الحضارة الغربية أمام الذهنية العربية وأثرت على مسار الفكر العربي.

[1] المرجع نفسه، ص3.
[2] عباس بن يحي: مسار الشعر العربي الحديث والمعاصر، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، د ط، 2004، ص18.
[3] المرجع نفسه، ص23.

والرحلة

إضافة إلى البعثات العلمية التي ساعدت على نقل العلوم والانفتاح على الغرب إلى جانب الرحلات.

ومما ساعد أيضا في الاطلاع على الثقافة الغربية، الترجمة من خلال ترجمة مختلف العلوم والآداب الغربية إلى اللغة العربية. أما العامل الثالث فهو نمو الاتصال الذي تدخل ضمنه الهجرة: فلا سبيل للهروب من الفقر والاضطهاد الاستعماري إلا الهجرة نحو المدن وبالتالي تقارب وتكتل. وكذلك الصحافة: "كعامل أساسي في البعث – ثمرة من ثمار المطبعة – بل ومن نتائج الحملة الفرنسية لأن نابليون أنشأ ثلاث جرائد، ويبدو أن عامل الرحلات كان أكثر فعالية في ظهورها وانتشارها"[1].

ومما ساعد أيضا على الاتصال "المكتبات"، أما التعليم فكان له دور فعال في التوعية والتكوين.

وتمثل العامل الرابع في " التكتل والنقاش حيث " لاحت بوادر التكتل والتجمع في صور جمعيات علمية ونواد"[2].

[1] عباس بن يحي: مسار الشعر العربي الحديث والمعاصر، ص27.
[2] المرجع نفسه، ص29.

الرحلة العربية [نشأتها وتعريفها]

"إن الرحلة قديمة قدم الإنسان ذاته إذ عرفها منذ العصور الغابرة حتى وقتنا هذا"[1]، فقد مارس العرب الرحلة منذ فترة الجاهلية وارتبطت في غالب الأحيان عندهم بالتجارة، وبمجيء الإسلام زادت العناية بهذا الفن، فورد ذكرها في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: « **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**»[2].

فلولا "الرحلة ما سمعنا عن البيروني أو المسعودي وابن خلدون، ولا قرأنا عن الإدريسي والمقدسي، ولولاها ما استمتعنا بكتابات ابن بطوطة وأسامة بن منقذ وياقوت الحموي والبغدادي وابن جبير، بل لولاها ما ظهر في سماء الأمة الإسلامية علماء كبار في كافة مجالات الأدب والعلم والفلسفة"[3].

" والرحال يصف رحلة – أو رحلات– واقعية، وشروط الواقعية هذا أهم ما يميز أدب الرحلة عن غيره من الأنواع الأدبية"[4].

---

[1] حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة 78، الكويت، دط، 1989م، ص15.
[2] سورة قريش.
[3] فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1-2، 2002م، ص68.
[4] ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي ، دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء، القاهرة، ط1، 1995م، ص41.

وباعتبار أن الرحلة تبنى على دوافع للقيام بها، "فيمكن التركيز على أكثر الأنواع شيوعا كالرحلات العلمية والدينية والاقتصادية والرسمية"[1].

"**الرحلات العلمية:** وهي من أشهر أنواع الرحلات وأكثرها شيوعا ويتعدد هذا النوع بتعدد أغراضه ومقاصده، فهناك الرحلات الاستكشافية والرحلات الدراسية ورحلات لقاء العلماء والأخذ عنهم، ورحلات النقيب والقراءة والبحث"[2].

"**الرحلات الدينية:** من أشهر هذا النوع رحلات الحج والعمرة، اللذين كانا من الدوافع القوية ... وقد اكتست الرحلة إلى الحج والعمرة قيمة مقدسة، وترددت في كثير من كتب الرحلة العربية، في مذكرات المؤلفين والأعلام[3].

" **الرحلات الاقتصادية:** كانت التجارة عند العرب منذ القديم دافعا لإنجاز الرحلة ... فأصبح التجار يسافرون إلى أراض جديدة، عن طريق القوافل والسفن، فبلغوا بمغامراتهم الصين والهند، وإفريقية، وساهموا في نشر الإسلام بهذه الدول" [4].

" **الرحلات الرسمية:** يضم هذا النوع كلا من الرحلات التكليفية، والإدارية، والسفارية" [5].

أما عن مفهوم الرحلة باعتباره فنا من الفنون الأدبية فقد تعرض له العديد من الدارسين كل حسب منظوره ، فنجد حسني محمود حسين يعرفه كما يلي: "الرحلة في جوهرها حركة وهذه الحركة ذات هدف –وإلا كانت سفها– قد يتحقق وقد لا يتحقق –في الحالتين

[1] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، 2009م، ص23.
[2] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص24.
[3] المرجع نفسه، ص27.
[4] المرجع نفسه، ص 29.
[5] المرجع نفسه، ص 30.

كلتيهما– اكتساب خبرات علمية وفكرية ناجمة عن المخالطة، وبذلك يتم التقابل بين الرحلة في اللغة والاصطلاح حيث يجمعهما أنهما حركة"[1].

ونجد سميرة أنساعد تعرفّ أدب الرحلة على أنه "مجموعة الآثار التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد"[2].

ويعرفه عمر بن قينة على أنه "لون أدبي، ذو طابع قصصي فيه عموما فائدة للمؤرخ مثل الباحث في الأدب، والجغرافي، وعالم الاجتماع، كما هو ضرب من السيرة الذاتية في مواجهة ظروف وأوضاع، في اكتشاف معالم وأقطار ووصفها والحكم عليها وعلى المجتمع"[3].

"فأدب الرحلة يرفع التهمة التي ترى أن الأدب العربي لم يعالج فن القصة"[4].

ويعتبر تدوين الرحلة وثيقة هامة في عالم الرحلة و"عملا مستنيرا ينم عن فطة أوتيها الرحال: فطنة علمية، وفطنة نظرية، ولعله ليس من قبيل المصادفة أن الرحلة المدونة لا تعرف الازدهار إلا في ظل الازدهار الحضاري لأمة من الأمم، فهذه الأمة يشعر أفرادها بالفخر

[1] حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1983م، ص25.
[2] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص31.
[3] عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث: تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1995م، ص97.
[4] شوقي ضيف: فنون الأدب العربي "الفن القصصي"، دار المعارف، مصر، ط1، 1956م، ص6.

لانتمائهم إليها، ... مما يحفزهم على القيام برحلات تهدف إلى التعرف على من وما يجاورهم، ومن ثم ينقلون هذه المعرفة في صورة كتاب رحلة هدفه إعلام وإمتاع ذويهم"[1].

فكان بعض كتاب الرحلات "يمزج التحقيق العلمي بالأسطورة والخيال والرؤية الموضوعية بالرؤية الشخصية الانطباعية، ومنهم من عني بعادات الشعوب وطباعها ومزاجها وخصالها"[2].

و"إن اختلفت دوافع الرحيل، وتباينت وسائل السفر، وتنوعت مادة الرحلة، ومع ذلك فإن كتاب الرحالة أيا كانت توجهاتهم الفردية ونزعاتهم الشخصية تصور إلى حد كبير بعض ملامح حضارة العصر الذي عاشوا فيه"[3].

"وكما كانت الرحلة العربية وآدابها إحدى مرايا الحضارة العربية، فقد تقلصت نسبيا هي الأخرى خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين (15م،16م) ،وتوقفت تقريبا خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (17م،18م) ، ولا نكاد نذكر إلا رحلتي النابلسي والطرابلسي والعياشي، ونحسب أن لذلك أسبابا عديدة، منها:

1-المشكلات السياسية والاقتصادية التي لحقت وعمت العالم العربي.

2-النكوص الثقافي والحضاري والتدهور الإنساني بشكل عام.

3-زوال دولة الإسلام من اسبانيا.

[1] ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي، ص60.
[2] إبراهيم السعافين وآخرون: أساليب التعبير الأدبي، دار الشروق، عمان، دط، 2000م، ص223.
[3] حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، ص15.

4-سقوط كل دولة تحت عبء مشكلاتها الداخلية والنزاع على السلطة.

5-بدء الكشوفات الجغرافية الكبرى، واكتشاف العالم الجديد في الأمريكيتين، وبداية الصعود الحضاري الأوروبي.

على أن الرحلات العربية سرعان ما عادت إلى البزوغ والازدهار من جديد في ثوب مختلف مع السنوات الأولى من القرن التاسع عشر"[1].

"ومع حلول العصر الحديث يتغير اتجاه الرحلات من المشرق و المغرب إلى أوروبا، ولعل هذا مرجعه التطور الحاصل بدول الغرب خاصة بعد الثورة الصناعية، وما انجر عنها من تجديد لوسائل العمل وأساليبه، وإنشاء مراكز علمية كبيرة، ولم يعد المهتمون بطلب العلم يشدون الرحال إلى مصر والحجاز والشام والعراق كما كان قديما، بل أصبح هؤلاء يتوجهون نحو فرنسا، إيطاليا، إنجلترا، أمريكا، وغيرها من الدول الغربية"[2].

وكانت رحلات العرب إلى الغرب من أهم الوسائل التي عرفتهم بمظاهر الحضارة الأوروبية في القرن التاسع عشر، "وقد وصف بعض الرحالين مشاهداتهم في الغرب ودونوا انطباعاتهم، فقرأها بعض مواطنيهم الذين لم يتمكنوا من زيارة أوربا بأنفسهم، وعليه لعب أدب الرحلة دورا في تعريف بعض العرب بالحضارة الأوربية، وفي نشر ما نجم عن الاحتكاك بالغرب من أفكار ومبادئ ونظم جديدة عملت على التأثير في المجتمع العربي تدريجيا " [3].

[1] فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص80-81.
[2] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص45.
[3] نازك سابايارد: الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، دار النشر نوفل، مصر، ط2، 1992م، ص8-9.

والرحلة

ومن بين الرحلات التي كان لها دورا فعالا في المجتمع العربي عموما ومصر خصوصا ، رحلة ***رفاعة رافع الطهطاوي*** ومؤلفه الشهير ***تخليص الإبريز في تلخيص باريز*** .

مقدمة

نحمد الله حمدا كثيرا مباركا فيه ، سبحانك لا نحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك خلقت فأبدعت، وأعطيت فأفضت، فلا حصر لنعمك ، ولا حدود لفضلك ، ونصلي ونسلم على أشرف عبادك ، وأكمل خلقك ، خاتم المرسلين ، ومعلم المعلمين ، نبينا ورسولنا محمد بن عبد الله الأمين ، خير من علم وأفضل من نصح.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ"[1]

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا " [2]

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا "[3]

أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

عرف الإنسان الرحلة والتنقل بفطرته التي جبل عليها منذ بدء الخليقة منذ هبط آدم وحواء إلى الأرض ، فظهر أدب الرحلات ليشكل أحد أهم تجليات الثقافة لكل عصر وقد أدى الرحالة العرب مهمة سامية للأجيال القادمة ، لذا تعد الرحلة من أهم العوامل التي ساهمت في النهضة العربية الحديثة، فشهد أدب الرحلة خلال القرن التاسع عشر رواجا في المجتمع العربي، لكنه رغم هذا لم يحظ بالقدر الكافي من الاهتمام بل أهمل بعد ذلك ، فأصبحت المصادر القيمة التي تحمل هذا الأدب مجرد تكديس على رفوف المكاتب ، نظرا

[1] سورة آل عمران ، الآية 102.
[2] سورة النساء ، الآية 1.
[3] سورة الأحزاب ،الآية 70-71.

لتوجه الدارسين نحوه العلوم والفنون المعاصرة ، فقلما يتجه الدارسون نحو ، ومن أجل ذلك ارتأيت إنجاز هذا الموضوع ، وتسليط الضوء على هذا النوع من الأدب للتعريف به والتعرف عليه، وركزت الدراسة عن أبرز طلائع التنويريين وأحد بناء النهضة الثقافية العربية الحديثة خلال القرن التاسع عشر وهو "رفاعة رافع الطهطاوي " وكل من يمر على مسمعه هذا الاسم يقرنه بمؤلفه الذي يضم رحلته "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" وقد تم اختياره باعتباره مصدرا هاما يتعرض لتفاصيل الرحلة ، فكانت الدراسات حوله قليلة ونادرة جدا.

كما أن العنوان زاد في جذب ولفت الانتباه "أثر أدب الرحلة في النهضة العربية الحديثة " إضافة إلى أنموذج الرحالة الرائد و السباق في ذلك الوقت "رفاعة رافع الطهطأوي" فسعيت أن يكون موضوعا يستحق اهتماما بالغا.

فكانت إشكالية البحث كالتالي :

يعد أدب الرحلة من أهم الفنون التي صورت احتكاك العرب بالغرب خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، فكيف ساهم أدب الرحلة في تطوير أدبنا العربي؟ وبما تميز أدب الرحلة؟

وإذا اعتبرنا بعثة رفاعة رافع الطهطأوي رحلة ، فيا ترى ما تأثير رحلته على بلاده وسائر بلاد العرب؟

وقد قسمت البحث إلى تمهيد للموضوع ، تحدثت فيه عن النهضة العربية الحديثة وعواملها، ثم الرحلة في الأدب العربي، نشأتها وتعريفها ، لأنتقل بعدها إلى الفصلين ، الفصل الأول خصص للحديث عن دور رحالة العصر الحديث في النهضة العربية الحديثة ، وإنجازات كل من أحمد فارس الشدياق، خير الدين التونسي، جمال الدين الأفغاني ، ورفاعة رافع الطهطاوي، أما الفصل الثاني فكان وقفة مع "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" وأثره في المجتمع العربي، فتطرقت بالدراسة إلى محتوى كتاب الرحلة ، وصف العرب ومقارنتهم بالغرب، بالإضافة إلى حركة الترجمة والتعريب والإصلاح.

لأصل إلى خاتمة الموضوع التي هي بمثابة إجابة عن بعض التساؤلات حول أهمية ومدى تأثير الرحلة في النهضة العربية الحديثة باعتبارها –الرحلة – عاملا من عوامل النهضة.

وقد اعتمدت في هذا على أهم مصدر وهو "تخليص الإبريز في تلخيص باريز " لرفاعة الطهطاوي ، إضافة إلى بعض المراجع الأخرى ، عمر الدسوقي "في الأدب الحديث" ، ناصر عبد الرزاق الموافي "الرحلة في الأدب العربي " ، حسين محمد فهيم "أدب الرحلات"، وغيرها من المراجع التي زادت في إثراء الموضوع ، لكن تعسر علي الحصول على مراجع بالغة الأهمية مما أعاق سير البحث بالطريقة المراد إنجازه بها وكذلك نظرا لضيق الوقت.

ومن بين الأسباب التي دعتني إلى اختيار هذا الموضوع :

التعرف على هذا النوع من الأدب والتعريف به، ورد الاعتبار لأهميته البالغة التي كانت سندا وثيقا للعديد من الدارسين والباحثين.

وتم التركيز على رفاعة رافع الطهطاوي في رحلته إلى فرنسا التي دونها تحت عنوان "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"

ومن بين الأهداف التي كنت أرمي الوصول إليها من خلال بحثي هذا هي :

خدمة الأدب العربي، ونفع المكتبة العربية ولو بالشيء القليل .

أن تكون هذه الدراسة مفتاحا أو بابا لنا للتعرف من خلاله على أسرار الرحلات العربية في العصر الحديث وما قبله.

ولقد اعتمدت في دراستي هذه على المنهج الوصفي التحليلي، فالمنهج الوصفي هو ما يتطلبه الجانب النظري ، أما المنهج التحليلي فهو الأنسب للجانب التطبيقي.

وفي الأخير أتقدم بالشكر إلى كل من ساعدني على إنجاز هذا البحث وأخص بالذكر الأستاذ " تيس ناصر محمد الحسني " المشرف على هذا العمل.

فما هذا إلا جهد مقل ولا أدعي فيه الكمال، ولكن عذري أني بذلت فيه قصارى جهدي، فإن أصبت فذاك مرادي، وإن أخطأت فلي شرف المحاولة والتعلم.

وأخيرا بعد أن تقدمت باليسير في هذا المجال الواسع آملة أن ينال القبول والاستحسان.

ملخص البحث

عرف الإنسان الرحلة منذ القديم ، فجاب العرب الشرق والغرب ونهلوا من كل بقعة حلوا بها، لذا تعتبر الرحلة أحد العوامل الهامة في النهضة العربية الحديثة، فبعد حملة نابليون على مصر أحس العرب بالفجوة العميقة بينهم وبين العالم الأوربي المتحضر في جميع الميادين، فوجهوا أنظارهم نحوه.

ومن رواد النهضة العربية الحديثة الذين اتصلوا بالحضارة الغربية والأوربية وعايشوها واكتشفوها، أحمد فارس الشدياق، هذا اللبناني الذي انتقل إلى مصر ، فتلقى علمها ودرس أدبها وكتب في وقائعها ،أقام بها تسع سنوات ثم توجه إلى مالطة أقام بها فترة ، ثم انتقل إلى لندن ، وظل يتنقل بين إنجلترا وفرنسا .

وتعرف على أحوالهما وعيشتها وأخلاق أهلهما، ودرس علومها وأدبهما، وكتب عنهما، وعن قضاياهما الاجتماعية والسياسية والثقافية، ومما كتب "كشف المخبأ عن فنون أوربا"، وقد عني بمقارنة أوضاع الحياة الأوربية بأوضاع حياة مجتمعه البائسة، ثم انتقل الى تونس ثم الى الآستانة، وبعدها أصدر صحيفة الجوائب التي نالت شهرة واسعة في العالم العربي آنذاك، وهكذا تابع مسيرته الإصلاحية النهضوية محاولا التجديد والتغيير.

أما خير الدين التونسي الشركسي الأصل ، مارس السياسة وشغل منصب وزير بتونس ، ثم أرسل من طرف الباي أحمد إلى فرنسا ، وهناك عايش الحضارة الأوربية، ولمس تأثيراتها ولاحظ التطور الذي حققه الغرب، ولفت انتباهه نزعتها الديمقراطية ، ثم عاد إلى تونس واستقال من منصبه، لكنه أرسل من طرف الباي إلى المانيا وإنجلترا وبعض البلدان الغربية، وشاهد التقدم الحضاري الذي تعيشه تلك البلدان ، الذي رأى أن سببه هو الديمقراطية ، فكتب "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك "، نشره في تونس والذي شمل الحديث فيه عن السياسة والقانون والاقتصاد .

ونهل في هذا كله من كتب أوربية ومشاهداته في أوربا ، فدعا إلى النهوض من خلال اصطناع وسائل قوة أوربا، وركز على الجانب السياسي الذي بإصلاحه يحصل الازدهار العمراني من خلال الحرية والعدل، فتحدث عن هذين المفهومين وأطال الحديث عنهما ، وقام بعدة إصلاحات في ميادين الإدارة ، التعليم والاقتصاد من خلال النمط الأوربي.

أما المصلح جمال الدين الأفغاني، الذي جاء للعرب من بلاد الأفغان، أحدث ثورة جعلت منه مصلحا يخشاه الجميع، درس في كابل ثم في الهند وبعدها سافر إلى مصر ومنها إلى الآستانة ، كانت رحلته رحلة دائمة لا تعرف الاستقرار ، وقد كان له الأثر البالغ في نهضة مصر علميا أدبيا وسياسيا، حيث درس بها وخاطب شعبها ، وكتب هناك المقالات التي ساهمت في إنتاج عقولا نيرة، وساهم في تطوير الأزهر وازدهاره. غيرأنه نفي من مصر لكنه أكمل رسالته في باريس برفقة تلميذه محمد عبده. أنشا هناك "العروة الوثقى" التي كان شعارها إيقاظ الأمم الإسلامية والمدافعة عن حقوق الشرقيين كافة ودعوتهم إلى مقاومة الاستعمار الأوربي، وهكذا ظل يرتحل من مكان إلى آخر داعيا لمشروعه الإصلاحي من أجل الوحدة الإسلامية.

ومن الحكام الذين كانوا حريصين على نهضة بلادهم الحاكم "محمد علي " الذي بادر بإرسال البعثات العلمية ، وكان الشيخ "رفاعة رافع الطهطاوي" من بين المختارين لهذه المهمة، وهذا المصري الصعيدي الذي درس بالأزهر ثم أصبح مدرسا به، ارتحل إلى باريس، فعكف هناك على تعليم اللغة الفرنسية ومختلف العلوم التي تزخر بها هذه البلاد المتقدمة ، فراح يترجم مختلف الكتب الأدبية والعلمية، وأعجب الإمام بمختلف مظاهر الحياة الجديدة، فساقه إعجابه إلى تدوين رحلته في كتاب "تخليص الابريز في تلخيص باريز" من أجل تعريف أبناء مجتمعه بجوهر الثقافة الأوربية ، شمل يومياته طيلة خمس سنوات، وهذا الكتاب يضم عجائب أذهلت الإمام الطهطاوي فرغم حجمه الصغير إلا أن مضمونه ثمين جدا ، وفيه ينقل صورة فرنسا في ذلك الوقت ويتحسر على حال العرب في مقالات مقسمة

إلى فصول ، حيث يصف صورة باريس وصفا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة التي هي موطن الحضارة ، الرقي والعمارة، وقارن بين باريس ومصر مقارنة توحي أنه كان يتمنى أن يكون تغيير مصر اقتداء بالنموذج الفرنسي.

وقد وجد الطهطاوي عناية خاصة من قبل محمد علي سواء أثناء رحلته أم بعد عودته، الذي حاول أن يوائم بين حاجات مصر وتراثها الشرقي، فاقترح الإمام إنشاء مدرسة الألسن لتكون ملتقى لثقافة الشرق بالغرب، وفيها تم ترجمة الكتب في مختلف العلوم، وقد كانت أبرز تمثيل للتعريب بإدارة وإشراف الشيخ الطهطاوي المترجم الأول بمصر، حيث أن الترجمة عصب الحياة الحديثة وأداة اتصال دولي حضاري ، فهي وسيلة لإغناء اللغة وتطويرها وتحديثها، وقد تم ترجمة مئات الكتب من الفرنسية للعربية في مختلف مجالات الثقافة والمعرفة، وقد نالت المرأة أيضا حظا من مشوار رفاعة في التعريب، واهتم كذلك بتعريب القضايا التي تتعلق بالحرية، وأكد على المساواة لما رأى من التساوي في المجتمع الفرنسي، فاعتماده على التعريب كان السبب في نشر الوعي واليقظة الفكرية ، فمشروعه الإصلاحي والنهوض من خلال التعرف والإعجاب والنقل.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة المسيلة
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

أثـــر أدب الرحلة في النهضة العربية الحديثة
رفاعة رافـــع الطهـطاوي أنموذجا

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر

فرع: أدب عربي

تخصص:أدب عربي حديث

إعداد الطالبة:
مروة طويوير

إشراف الأستاذ:
ناصر محمد الحسني تيس

السنة الجامعية: 2013/2012

Résumé

Depuis l'ancien temps, l'homme a commence par parcourir le monde , il a fait des tournées à travers l'orient et l'occident , c'est pourquoi le voyage reste un facteur important, dans la renaissance de la longue arabe moderne. Après de nombreux progrès l'Egypte à été envaler par Napoléon alors la civilisation arabe a faibli, et les arabes ont ressenti un profond écart entre eux et le monde européen très civilisé et avancé dans tous les domaines et de là, le monde arabe fut attiré vers l'Europe.

Parmi ces pionniers de la renaissance arabe moderne qui ont contacté, découvert et vécu la civilisation occidentale européenne, nous avons « Ahmed Fares chidiaq » , d'origine Libanais il s'est installé durent neuf ans en Egypte ou il à étudié la littérature, et il a écrit dans les fait ensuite il s'est dirigé vers Malta ou il y passe peu de temps, puis il s'installe a Londres et en parallèle il faisait des déplacements entre l'Angleterre et la France et de là, il a connu la société, sa tradition et sa vie sociale par la suite il a étudié les sciences, la littérature dans la quelle il écrivait sur leurs affaires politiques, sociales et culturelles, son principale œuvre : « kachef El Mokhabaa Ane Fonnoune Ouroba ». Comparant les conditions de vié européen avec celle de sa société très misérable.

Il continue son pore ours et se rend en Tunisie, puis Astana ou il publie son journal « Eljawaib » qui à remporte un grand succès dans le monde arabe durant son époque, ensuite il poursuit sa carrière de reforme et de renaissance.

Pour le Tunisien Kheir Eddine Circassien origine, c'est un politicard, en ce moment il occupait le poste de ministre en Tunisie ; envoyé par Ahmed Bey en France, il à vécu une touche de la civilisation européenne et ses effets, en remarquant les progrès accomplis par l'occident et la tendance de la démocratie. De retour en Tunisie, il démissionne de son poste, une seconde fois, il fut envoyé par Ahmed Bey en Allemagne, puis en Angleterre et d'autres pays occidentaux ou il constate les progrès de la civilisation vécue par ces pays, influence, il écrit « je viens de connaitre les conditions de royaume publie en Tunisie, comprenant un exposé sur la politique, et du droit de l'économie … Attentionné par les européens et les observations en Europe, il appelle au promouvoir par la synthèse, la puissance de l'Europe, et la concentration sur l'aspect politique on obtient le développement de l'urbanisme .

En s'appuyant sur les concepts de la liberté et la justice il a fait plusieurs reformes dans le domaine de l'administration, de l'éducation et de l'économie à travers le style européen.

Le réformateur « Djamel Eddine AlAfghani » qui est venu pour les arabes de la terre des Afghans la révolution à fait de lui un réformateur, il à étudie à « Kaboul » puis en « Inde »

et s'est rendu ensuite à l'Egypte et de là à Astana ; son voyage ne connait pas la stabilité ; il a eu un impact sur la renaissance de l'Egypte moralement et politiquement ou il a enseigné et s'est adressé au peuple, de même il a écrit des articles qui ont contribués à la production d'esprits brillants et à l'élaboration d'Al Azhar.

Banni de l'Egypte ; il achevé sa mission à Paris. Accompagné de son élève Mohammed Abdo il a crée « AlOurwa AlWothka » dont le but de réveiller les nations musulmanes et défendre les droits de tout orientale et inciter à résister au colonialisme européen. Il continue à se déplacer d'un endroit à un autre appelant à sa réforme de l'unité Islamique.

Des dirigeants qui incitaient sur la renaissance de leur pays, c'est le gouvernant Mohammed Ali qui était initié par l'envoie d'une expédition scientifique à leur tête « Cheikh Refaah Rafia Attahtawie » choisi pour cette tache ainsi que l'Egyptien Al Saidi qui a étudié à AlAzhar, il est devenu ensuite enseigne. Il se rendit à Paris. Il apprend la longue française les diverses sciences existant dans ces pays développés ou les divers ouvrages littéraires et scientifiques traduits. Attiré par ces diverse manifestation de la né nouvelle ; l'a amené a enregistré son voyage dans le livre « Takhlis AlIbriz Fi Talkhis Baris » à fin de définir les fils de sa société avec l'essence de la culture Européenne qui comprenait son journal pendant cinq ans. Ce livre comprend des merveilles et étrangetés abasourdis, l'Imam Tahtawi, malgré sa petite taille mais son contenu est très précieux, il transmue l'image de la France à l'époque et déplore le cas des arabes dans différents articles ; il fait une comparaison entre l'Egypte et Paris et esprit qu'il ait du changement dans son pays en inspirant le modèle Français.
Attahtawi a trouvé une attention particulière de la part de Mohamed Ali, à la fois pendant ou après son voyages. L'Imam essai d'aligner les besoins de l'Egypte alors il a crée une école pour être un forum pour la culture du Middle West et traduire les livres dans divers domaines de la science, cet école a été la représentation la plus importante à cette époque dont le premier traducteur était Cheikh Attahtawi .

En Egypte car la traduction est un outil de communication internationale moderne et civilisé et permet d'enrichir et de développer la longue. En conséquence des centaines de livres ont été traduit du français vers l'arabe dans différents domaines de la culture et de la renaissance. Comme il s'est intéresse aussi à l'arabisation sur les questions de la liberté et d'égalité, en s'inspirant de la société française égale.

Grace à son arabisation, l'Imam à été la cause de la diffusion de sensibilisation et de la vigilance intellectuelle, son projet de reforme est du à l'admiration et à la reconnaissance.

فهـــرس المحتويات

	الصفحة
كلمة شكر	**-**
مقدمة	**أ**
مدخـــــــــل	
النهضة العربية الحديثة وعواملها	**06**
الرحلة العربية [نشأتها ومفهومها]	**09**
الفصل الأول : دور رحالة العصر الحديث في النهضة العربية	
-أحمد فارس الشدياق	**15**
-خير الدين التوسني	**26**
-جمال الدين الأفغاني	**34**
-رفاعة رافع الطهطاوي	**42**
الفصل الثاني: وقفة مع تخليص الإبريز في تلخيص باريز وأثره في المجتمع العربي	
-محتوى كتاب الرحلة	**53**
-وصف الغرب و مقارنتهم بالعرب	**60**
-حركة الترجمة و التعريب و الإصلاح	**75**
الخاتمة	**85**
النتائج والاقتراحات	**88**
قائمة المصادر و المراجع	**90**
فهرس المحتويات	

الخاتمة

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث أذكر نفسي وغيري بقوله سبحانه وتعالى:

" **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدً** "[1]

لقد أسهمت كتابات الرحالة في نقل كثير من الصور الجميلة والمشاهد المميزة للبلدان التي ارتحلوا إليها، وطبيعتها الجغرافية، وظروفها المعيشية، وألقوا الضوء على تاريخها، وأفكار سكانها، وعادات وتقاليد قد تختلف وقد تتفق مع عادات البلاد التي جاء منها هؤلاء الرحالة، فأسهموا بذلك في نقل بعض ثقافات الشعوب الأخرى، وإثارة الاهتمام بها، وتشجيع المهتمين من العلماء وطلبة العلم على زيارة تلك البلاد للنهل من معارفها وعلومها، فكانت منبعا ثريا لمختلف العلوم، وهي بمجموعها سجّل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة على مر العصور، فالرحلات تكشف مالا يكشفه التاريخ.

وقد ساهمت في تطوير أدبنا العربي من خلال تزويد القراء بمعلومات وصور ممتعة وأخبار تمتع وتستعرض الأحداث بصورة أدبية تتسق مع النفس البشرية ، فشكلت رافدا من روافد الفن المتعة الأدبية وتزويد أهل الأدب وغيرهم بمعلومات قيّمة عن وصف المدن والطرق والعمران والبلدان وأخبار الناس وعاداتهم وتقاليدهم ، والحوادث الغريبة، خصوصا إذا كانت هذه البلدان متطورة علميا ومتقدمة حضاريا.

وقد تميزت كتابات الرحالة بالتنويع الأسلوبي نظرا لاكتساب التجربة في مجال التأليف، إضافة إلى عدم التركيز على مجال واحد أو اختصاص، بل الخوض في مجالات عديدة ومسائل مختلفة علمية، أدبية، ثقافية، سياسية واقتصادية يتناولها بالوصف من جهة ومقارنتها بأحوال مجتمعه من جهة ثانية.

[1] سورة الكهف: الآية 110.

فأبرزت الرحلة دور الرحالة في التفاعل الثقافي ، وكذا نقل إبداعات الشعوب وثقافاتها إلى سائر أقطار العالم.

فقد كان الرحالة قبل العصر الحديث يشدّون الرحال إلى الحجاز والشام والعراق، لكن مع حلول العصر الحديث أصبح الاتجاه نحو أوربا وأمريكا، ونظرا للإحساس بالفجوة العميقة بين العرب والغرب، فسجل الرحالة مشاهداتهم وانطباعاتهم وآرائهم ، ونقل خلاصة ما طالعوه من كتب الغربين الفكرية والأدبية، من خلال تدوينها وإدخالها ضمن مؤلفات فن الرحلة ، وما أدته من دور في التعريف بالحضارة الغربية المتطورة السباقة في ميادين الحياة بكل جوانبها، ونشر أفكارها ومبادئها ونظمها في المجتمع العربي، ومن ثمة حدوث التغيير والانقلاب السياسي خاصة، نظرا لما كان يسود في المجتمعات العربية من استبداد وظلم وقهر.

إضافة إلى أن هناك رحلات كانت تخدم الأغراض الاستعمارية، لما شهدته هذه الفترة من توسع استعماري في الوطن العربي فتتم الرحلة بعناية المستعمر.

وقد امتازت الرحلة بروحها العلمية والنقدية ، فكان رفاعة الطهطاوي كثير الاهتمام بالمسائل العلمية ، إضافة إلى إبداء رأيه في جميع المواقف والمشاهد، وطرح وجهة نظره ناقدا ومعلقا. فكان تأثير رحلته واسع النطاق سار على نهجه العديد من الرحالة ، وسلكوا الطريق ذاته فصوّروا لنا مشاهد الحياة الجديدة ، التي تتسم بالحرية والعدل والمساواة في الحقوق والواجبات على حد سواء فكان هذا غرضهم الجوهري.

لذا كان الإقبال عليها كبيرا، سواء من عامة الشعب للتوعية، أو من الحكام للحيطة و الحذر، فكان رفاعة الطهطاوي محط أنظار الحكام المصريين، لما أحدثه من تغيير في بناء الشخصية العربية وتوعيتها وتثقيفها ، وقد تعددت وتنوعت مؤلفاته ومترجماته ولاقت رواجا كبيرا.

ويظل هناك الكثير للبحث في هذا الموضوع ، وتصفح خباياه، ويبقى المجال مفتوحا من كل جوانبه للدراسة.

فهذا جهدي بين يديك، فإن أصبت فالخير أردت ولي أجر، وإن كانت الأخرى–أخطأت– فحسبي أن لي أجر المحاولة والاجتهاد، وأسال الله تعالى أن يجعل جهدي المتواضع هذا لبنة صالحة مفيدة والفائدة المرجوة والنفع المؤمل والمتعة المنشودة، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، والحمد لله فاتحة كل خير وتمام كل نعمة.

النتائج والاقتراحات

ما نستنتجه من هذا البحث :

-في العصر الحديث أصبح أدب الرحلات شكلا فنيا داخلا في الأدب وليس دراسة تاريخية وجغرافية حية كما كان من قبل.

-كتابة الرحلة بأسلوب بسيط وأقل تعقيدا على خلاف ما كان في القديم .

-ينتمي كتاب " تخليص الإبريز في تلخيص باريز " إلى جنس أدب الرحلة بالنظر إلى المكونات السردية التي يتضمنها وآليات الكتابة التي تسمح للتصنيف أن يأخذ مشروعيته لا في مجال الأدب وفقط بل يمتد إلى حقل العلوم الإنسانية وما تكتنزه من مجالات جمة، وهنا تصبح الرحلة نافذة على التاريخ والفلسفة والجغرافيا والأنثروبولوجيا والأثنوغرافيا والاجتماعيات ... بحيث يمكن العودة إليها حينما يتعلق الأمر بإحدى هذه المجالات .

-الوعي بالآخر من خلال تصور مكتوب يلعب دوره في تغذية المتخيل العامي ، وتبنى عليه استراتيجيات سياسية كبرى لها دورها الملموس في تاريخ البشرية .

-اكتشاف الرحالة الطهطاوي وغيره لذلك الوجه الحضاري للغرب الذي يناصر العقل والتنوير والعلم كأداة للرقي والتمدن .

-دعوة العرب إلى الانفتاح على الغرب، والاستفادة من علومهم ومعارفهم وتحضرهم لتجاوز واقع التخلف والانحطاط .

-الترجمة وخاصة القوانين الفرنسية والدعوة إلى الاستفادة منها وإلى التعجيل بالإصلاحات السياسية الكفيلة بتحسين أحوال العرب – المسلمين –

-التعريب وما انجر عنه من وعي ويقظة.

أما ما نقترحه :

-دعوة الدارسين والباحثين إلى بذل جهود في هذا المجال نظرا لوجود شح في الدراسات التي تهتم بمثل هذه المواضيع نظرا لأهميته البالغة في مسيرة الأدب العربي عموما والحديث خصوصا .

-القيام بدراسات مكملة لهذه الدراسة.

-محاولة توفير المصادر والمراجع التي تخدم هذا الموضوع.

الفصل الأول:

دور رحالة العصر الحديث في النهضة العربية

- أحمد فارس الشدياق

- خير الدين التوسني

- جمال الدين الأفغاني

- رفاعة رافع الطهطاوي

أحمد فارس الشدياق

لم يفصل بين رحلة الشدياق إلى أوربا 'مالطا ومنها إلى بريطانيا وفرنسا' ورحلة الطهطاوي إلى فرنسا إلا ثماني سنوات ، إلى اكتشاف العالم الجديد الذي صنعته المدنية الأوروبية الحديثة، والشدياق بهذا الاعتبار في جملة أوائل من اتصلوا بينابيع تلك المدنية وظواهرها في الاجتماع والسياسة والثقافة، "فهو من رواد النهضة الحديثة في الأدب، وممن سبق بفكره، وقلمه، وعلمه أبناء زمانه لكثرة ما قرأ، وجرب، ورأى بعينيه، وسمع بأذنيه، لأنه جاب بلادا عديدة وعرف لغات شتى، وأفاد مما رأى، ومما قرأ وعرف، فكان نادرة من نوادر عصره"[1].

يرجع نسب الشدياق إلى عائلة مارونية عريقة النسب في لبنان "ولد في عشقون عام 1804م، ثم انتقل والده إلى الحدث بجوار بيروت، فشب فيها وتعلم في عين ورقة بلبنان، وتلقى اللغة العربية على أخيه أسعد، ودخل أخوه في المذهب الإنجيلي على أيدي المبشرين الأمريكيين، فاضطهده أهله وكهنتهم حتى مات قهرا في محبسه، فغضب فارس وفر إلى مصر"[2] ، وكان ذلك سنة 1825م بدعوة من المرسلين الأمريكيين، الذين دعوه ليعلمهم العربية غير أن الإقامة بمصر أتاحت له تلقي اللغة والأدب والنحو والبلاغة والصرف والشعر على بعض علمائها ، وخاصة الشاعر الأديب ***الشيخ محمد شهاب الدين*** –محرر الوقائع المصرية–.

[1] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، دار الفكر، القاهرة، ط8، د ت، ج1، ص100.
[2] جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1978م، ج4، ص235.

"ثم أفسح له مجال الكتابة في الوقائع، فأخذ يدبج فيها المقالات الممتازة بأسلوب جديد لم يألفه المصريون من قبل، وهو الأسلوب المرسل الرصين، ثم أسند إليه تحرير الوقائع المصرية مدة"[1].

فاستطاع في التسع سنوات التي أقامها فيها أن يكون نفسه في اللغة والأدب ، تكوينا سليما على أساس متين، "بعد ذلك دعته الإرسالية الأمريكية إلى مالطا عام 1834م، فعلم اللغة العربية وتولى إدارة المطبعة الأمريكية، وأقام في مالطة حتى 1848م، وفي مشاهداته وانطباعاته هناك ، كتب الواسطة في معرفة أحوال مالطة"[2]، وهو أول ما كتبه في الرحلات، ونظرا لولوعه بالسفر والترحال فهو يرى أن الرحلة تكسب صاحبها خبرة وتجارب وتحصيل معارف، حيث يقول في هذا المضمار: "...فإن الأسفار طالما ذكرها الذاكرون، وبالغ في وصفها الواصفون، فمدحها من علت مروءته وسمت همته، وذمها من قصر عنها، ولم يجن منها، فمنهم من شبه صاحبها بدر إن لم ينقل لم يكن في التيجان منضودا، وبهلال إن لم يسر لم يصر بدرا مشهودا"[3] .

ومن هنا قامت للشدياق شهرة أدبية لغوية، وخاصة في أوساط المرسلين، "إلى أن طلبته جمعية ترجمة التوراة بلندن، ليساعد في التعريب والضبط والتنقيح، فسافر إليها سنة 1848م، وأقام بها مدة مكنته من تعلم اللغة الانجليزية، والتعرف على أحوال الإنجليز وبلادهم معرفة

[1] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص101.
[2] نازك سابايارد: الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، ص21.
[3] ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي، ص85-86.

دقيقة، تم سافر إلى باريس بعد أن نال الحماية البريطانية، وتجنس بالجنسية الانجليزية"[1]، وأتاحت له هذه المهمة أن يطيل التجوال في إنجلترا وفرنسا، وأن يتعرف إلى ريفهما وحضرهما، وأن يدرس عن كثب أحوالهما وأخلاق أهلهما، وأن يقرأ صحفهما ومجلاتهما العلمية والأدبية، وقد أعانه ذلك على أن يؤلف كتابه الثاني في أدب الرحلات، وهو "كشف المخبأ عن فنون أوربا"، "فذكر أنه قرأ –التأمل الشعري– للامرتين الذي اجتمع به في باريس، كما قرأ شعر بيرون، وأدب سويفت، ولورنس استبرن، وجون كليفلاند، ورابلي، وغولد سميث"[2].

كما ألفه كتابه 'الساق على الساق فيما هو الفارياق"، "ثم تعرف إلى باي تونس وسافر إليه فأكرمه وقدمه، فأسلم وسمي أحمد"[3] ، بل أضيف إلى اسمه لقب الشيخ الذي اشتهربه في العالم العربي الإسلامي، وأصبح يكنى بأبي العباس.

لم يطل مقام الشيخ أحمد فارس الشدياق بتونس، على الرغم من قربه من الباي وتوليه هناك أعلى المناصب، فلما كررت الآستانة دعوته إليها غادر تونس ملبيا دعوة السلطان، وهناك ألحق بديوان الترجمة وتولى تصحيح بعض المطبوعات.

"ويقال إن الخديوي إسماعيل هو الذي أشار عليه في أثناء زيارته للآستانة بإنشاء ***الجوائب*** وكان معجبا به، فقام بإنشائها سنة 1861م، واشتركت فيه الحكومة المصرية بألفي نسخة"[4].

[1] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص101.
[2] نازك سابايارد: الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، ص25.
[3] جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ص235.
[4] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص102.

وقد نالت صحيفة الجوائب شهرة في العالم الإسلامي لم تنلها صحيفة سواها منذ إنشاء الصحافة العربية، فأقبل السلافين والملوك ورؤساء الحكومات العربية الإسلامية عليها، كما كان المفكرون يتهافتون على قراءتها، وبلغت من حسن التبويب والإتقان، وبراعة التحرير، وجودة الأساليب، حدا جعلها أكبر صحف ذلك العهد وأوسعها انتشارا، "فقد وضع أحمد فارس كل تجاربه وعلمه وفنه، وقلمه الظريف القوي المتمكن من مختلف أساليب اللغة في إخراج الجوائب، فكانت من الصحف الأولى في العالم"[1].

كما كانت مطبعتها الخاصة المسماة "مطبعة الجوائب"، من أشهر المطابع في الآستانة والمشرق العربي، وقد أمدت المكتبة العربية بسيل من المطبوعات، التي شاركت في إحياء التراث العربي، والحق أن صلته بالسلطان العثماني، وبرؤساء البلاد العربية والإسلامية، جعلت "صحيفة الجوائب" مركزا هاما لسياسة الشرق حقبة من الزمان.

ولم تكتف الجوائب بمركزها السياسي ، وبمنبرها الشرقي ،الذي كانت تسمع منه أجهر الأصوات، بل أضافت إلى ذلك ميدانها الأدبي ، ومعرضها الحامي في الجدل والمناظرات وكثيرا ما قامت فيها المعارك الأدبية.

وبعد أن تعطلت جوائبه "قدم مصر سنة 1886م وهو شيخ هرم، في عهد الخديوي توفيق، فقوبل بكل إجلال وترحاب، واجتمع به كثيرون من الأدباء ورجال الصحافة، فبهرهم على الرغم من شيخوخته بتوقد قريحته، وسرعة بديهته، وحلاوة سمره وطلاوته، ورقة حاشيته،

[1] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص111.

ورشيق عبارته، ثم عاد إلى الآستانة فتوفي بها سنة 1887م، ونقلت جثته إلى سوريا، ودفن بقرية الحازمية على مقربة من بيروت"[1] .

"كان أحمد فارس الشدياق من أكبر النهوضيين والإصلاحيين، وكان شديد الإحساس بحاجات العصر، وكان مزيجا نادرا من حداثة القرن التاسع عشر وروح الثقافة العربية، ومزايا الحيوية والمبادرة الخلاقة وحب المغامرة ، التي اتصف بها اللبنانيون ولا شك في أن إنجازه الأدبي كان كبيرا بالقياس إلي زمنه، وكان همه الأول منصبا على اللغة "[2].

"وقد عني الفارياق من مؤلفاته بالأبحاث اللغوية، ومن ذلك كتابه "الجاسوس على القاموس" الذي حاول فيه أن يستدرك على صاحب القاموس ، ما جاء في معجمه من قصور وإبهام وإيجاز ، وإيهام وعسر، في مراجعة الأفعال ومشتقاتها، وذلك بأن يؤلف في اللغة كتابا سهل الترتيب واضح التعاريف، شاملا للألفاظ التي استعملها الأدباء والكتاب وكل من اشتهر بالتأليف"[3] .

ولقد تعددت أسبابه في تدوين رحلاته، وتفاوتت بين مجرد نقل مرئيات متفاوتة في القيمة والأهمية، وبين توجيه التدوين نحو أغراض اجتماعية وسياسية، تفيض عن مجرد الإعلام بالشيء والتعريف به.

[1] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص 102
[2] سلمي خضراء الجيوسي: الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ت عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2000م، ط2، 2007م، ص 40.
[3] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص 104.

إن رواية الشدياق لمشاهداته في أوربا، لم تكن فعلا وصفيا عاديا، قابلا للتحقيق من دون آثار نفسية، فالرجل روى ما رواه ، بغير قليل من المعاناة الناجمة عن تشغيل حاسة المقارنة، بين أحوال مجتمعنا العربي البائسة، مقابل أحوال مجتمعات أوربا، "وقد كان بإمكانه أن يقارن الأوضاع الحياتية أينما حل، وأن يقابل ثقافة الشرق وجها لوجه بثقافة الغرب، متجولا بحرية كاملة بينهما"[1].

"فقد درس الحياة في بلاد الإنجليز وفرنسا ، وفي لندن وباريس بخاصة، وقارن بين بعض نواحي الحياة في كل منهما من جهة، وبينها وبين بعض نواحيها في مصر والشام من جهة أخرى"[2].

ولم يترك الشدياق مكانا لغياب تفصيل من تفاصيل الطبيعة والاجتماع والسياسة والثقافة في بلد أوربا التي أقام فيها فيما كتبه عنها أو دونه ، فقد "أتاحت له فرصة الاطلاع والوقوف على دقائق الحياة الأسرية والعلاقات الاجتماعية، في هذا المجتمع الأجنبي خاصة وقد ساعده كونه مسيحيا حتى ذلك الوقت على الاندماج في حياتهم"[3].

وما اكتفى الشدياق في إنصافه، ببيان سبق الأوربيين، وتفوقهم في تنظيم الدولة، وإقامة أمور الحكم فيها على مقتضى الحرية والعدل، وبتطوير الصنائع، وحتى ببيان ما حظي به العلم من عناية، وما نهض به من دور في عمارة بلدان أوربا وصناعة نهضتها.

[1] سلمى خضر الجيوسي: الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ص41.
[2] ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي، ص90.
[3] المرجع نفسه، ص90.

لقد كان أحمد فارس الشدياق أكثر النهوضيين العرب التزاما بالموضوعية وتحليا بالنزاهة في روايته عن أوربا، إذ لم يبالغ في مفاخرة الأوربيين، بما يعتقده جازما أن للعرب والمسلمين فضل الفرادة والتميز، فنجده يستنفر من طعامهم ورداءته حيث يقول: "فلعمر الله إن كان هذا الغش نتيجة التمدن والرقي في العلوم فالجهل خير، فإن أهل بلادنا والحمد لله على جهلهم ما يعرفون شيئا من هذه الفنون الكيمياوية، والأخلاط الغير المتناهية، التي توجب على الشاري أن يستصحب معه مرآة من المرايا المكبرة ليرى تلك الأجزاء، أو المركبات ، فيما يؤكل أو يشرب في وطنكم هذا السعيد... فإن الكلاب والسنانير تأبى أكل هذه الجباجب التي تحشونها بلحومهن..."[1] ، فكان أكثر اهتمامه منصبا على الحياة الاجتماعية الأوربية من أجل أن ينقل إلى مجتمعه المفيد، لكي يأخذوه، والمسيء كي يتجنبوه.

"فالشدياق لا ينشد فوائد الرحلة من علم وخبرة للرحالة وحسب، وإنما يريد أن تعود فوائدها إلى قومه كذلك ، بنقل كل مفيد يعين على تقدمهم من تلك البلاد التي زارها، وبمقابلة ما رآه بما في بلده من نظائر وأشباه، ولذا فهو يحث من يرحل عن وطنه، على تأليف في رحلته يشهره بين بني قومه لينتفعوا به"[2].

[1] ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي ، ص92.
[2] المرجع نفسه، ص86.

وقد اتجه إلى وصف مصر في كتابه "الساق على الساق" حيث يقول: "ومن خواصها أن أسواقها لا تشبه رجالها البتة، فإن لأهلها لطافة وظرافة، وأدبا وكياسة، وشمائل مرضية، وأخلاقا زكية، وأسواقها عارية عن ذلك رأسا"[1].

"والحق أن أحمد فارس الشدياق لم يدع شيئا في أهل مصر وعاداتهم، إلا وصفه وصفا دقيقا ، بذلك الأسلوب المرح وهذا التهكم المحبوب، وله نظرات نافذات حيث يتكلم على الأجانب، وكيف صار لهم الحول والسلطان، مع أنه كانوا في بلادهم أفاقين مفلسين، وحين يعبر عن فلسفة الحشاشين، وكيف يعملون جادين مخلصين على تغييب العقل، وهو الذي يهدي الإنسان سواء السبيل"[2].

بيد أن ما انفرد به الشدياق عن أضرابه من الكتاب العرب المعاصرين، اتخاذ كتاباته شكلا نقديا للمجتمعات الغربية، أكثر مما اتخذت شكلا دفاعيا عن الموروث الحضاري العربي الإسلامي.

"ومما يلفت الأنظار في أدب أحمد فارس الشدياق، أنه كان قوي الملاحظة معنيا بأحوال الشعوب، وطرق حياتهم، والموازنة بين الشعوب التي زارها والشعوب العربية، وله فصول ممتعة في كتابه ***'الساق على الساق'*** عن الإنجليز، وبلادهم، والفرنسيين وأحوالهم"[3].

[1] عمر الدسوقي : في الأدب الحديث، ص106.
[2] المرجع نفسه، ص108.
[3] ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي، ص109.

كما "نجد الشدياق المصلح يشن هجومه المرير أحيانا على المجتمع، منتقدا مثالبه ، كما نجد الشدياق الأديب المجدد يشن هجوما مباشرا على التقليدية في الشعر والنثر معا، فيساعد بذلك على تمهيد الطريق أمام التجديد"[1].

لذا يعد علما من أعلام النهضة الأدبية الحديثة، " فكان كارها للتكلف اللفظي، والصناعة التقليدية،إذ رأى في محسناتها وزخارفها ضياعا للمعنى،وقتلا لقوة الابتكار لدى الأديب"[2].

ولم تخل كتاباته من الفكاهة والهزل، فعند تعرفه بأحدهم في إنجلترا يقول:"فيها تعرفت بالفاضل الكريم عبد الله أفندي الأدلبي قنصل الدولة العلية، ولم يكن لتعارفنا من سبب سوى حمرة رأسينا، فإنه ما رأى طربوشي أقبل إلي مبتسما باشا ودعاني إلى منزله من دون أن أبرز كتاب وصاة على عادة القوم"[3].

إضافة إلى حرصه على صدق وصحة الأمور، والأخبار،والتدقيق فيها، وعدم التسليم بكل شيء، لذا فهو يخلط بين الجد والهزل.

خلف هذا الرائد مؤلفات كثيرة وهامة في مسيرة الأدب العربي منها:

'الساق على الساق فيما هو الفارياق': "وهو لغوي فكاهي، ضمنه وصف أسفاره، وانتقاد جماعة الاكليروس انتقاما لما فعلوه بأخيه أسعد، بأسلوب جديد لم يسبقه إليه أحد في اللغة العربية، ويورد في أثناء الكلام مجموعة من الألفاظ المترادفة في كل موضوع"[4].

[1] سلمى خضراء الجيوسي: الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ص41.
[2] ناصر عبد الرازق الموافي، ص103.
[3] المرجع نفسه، ص102.
[4] جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ص236.

حيث يقول الشدياق عن هذا الكتاب:

"هذا كتابي للظريف ظريفا طلق اللسان وللسخيف سخيفا

أودعته كلما وألفاظا حلت وحشوته نقطا زهت وحرفا

وبداهة وفكاهة ونزاهة وخلاعة، وقناعة وعزوفا

كالجسم فيه كل عضو تعشق الـ مستور منه وتحمد المكشوفا

فصّلته، لكن على عقلي فما مقياس عقلك كان لي معروفا"[1]

'سر الليال في القلب والابدال'.

'الواسطة في معرفة أحوال مالطة': وفيه وصف رحلته إلى جزيرة مالطة، "حاول أن لا يترك شاردة ولا واردة في مالطة دون أن يضمنها صفحاته القليلة، فجاء الكتاب طافحا بأحوال الجزيرة ،وبعادات أهلها ومظاهر حياتهم، فبحث في تاريخها ... وتحدث عن هوائها وجوها في الشتاء وفي الصيف"[2].

- 'كشف المخبأ عن أحوال أوربا'.
- 'الجاسوس على القاموس': وهو كتاب نقد فيه كتاب "القاموس المحيط"للفيروز أبادي.

'اللفيف في كل معنى ظريف'.

[1] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص111.
[2] ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي، ص88.

- 'منتهى العجب في خصائص لغة الأدب': وهو كتاب في "أسرار اللغة وخصائص الحروف ومدلولاتها، ولكنه ذهب فريسة النار، وهو بعد مخطوط لم يطبع"[1].

[1] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص103.

خير الدين التونسي

"لم تذهب دعوة الطهطاوي للتحديث سدى، فبعد بضع سنوات ظهر نجم جديد في شمال إفريقيا يدعو إلى النهضة والعمران، ولم تكن نظرته للتقدم تماثل نظرة الطهطاوي فحسب، ولكنها خطوة نحو التحقيق والفعل"[1].

إنه خير الدين التونسي الوزير الكاتب، والرجل السياسي.

"فقد ولد في إحدى القرى الصغيرة بجبال القوقاز بقبيلة "أباظة" الشركسية، واختطفه تجار الرقيق صغيرا، وجاءت به قافلتهم إلى الآستانة، حيث بيع كما يباع الرقيق، وتناقلته الأيدي بالبيع والشراء رقيقا إلى أن وصل إلى قصر حاكم تونس الباي أحمد باشا، فتعلم القراءة والكتابة وفرائض الدين، وفنون العسكرية، والسياسة والتاريخ، وأجاد الفرنسية مع العربية مع التركية"[2].

وانضم إلى سلك الجيش وسلك الوزارة والدبلوماسية، وعندما أحس الباي أحمد بخطورة الاحتلال الفرنسي الذي كان أصبح بالقرب منه في الأراضي الجزائرية الشقيقة، أنشأ في 'باردوا' بفرنسا سنة 1840م "مكتب العلوم الحربية"، فكلف خير الدين بالإشراف على هذا المكتب، وهناك عايش خير الدين الحضارة الأوربية ولمس تأثيراتها ،فقد شاهد بأم عينيه مدى التطور الذي حققه الغرب بعد زيارات مختلفة إلى عواصمه.

[1] صلاح زكي أحمد: أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط1، 2001م، ص29.
[2] المرجع نفسه، ص30.

ولعل الشيء الأبرز الذي لفت نظره في المدينة الحديثة هو نزعتها الديمقراطية، ومن هنا دأبه على أن تتمثل تونس بالبلدان التي زارها واطلع على أحوالها وبخاصة فرنسا التي كانت في ذلك الحين قد بلغت شوطا بعيد في هذا المجال.

"وعاد خير الدين إلى تونس عام 1857م، ثم استقال من منصبه السياسي سنة 1862م، إلا أن الباي أوفده في مهمات مختلفة، إلى بلاطات ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا والنمسا والسويد وهولندا والدنمارك وبلجيكا"[1]، حيث اطلع خلالها على هذه الممالك ومظاهر وأسباب تقدمها الحضاري، فقد كان وراء إنشاء أول مجلس شورى منتخب وذلك اعتبارا منه أن لا خلاص لتونس مما عليه من تخلف وانحطاط بغير السبيل الديمقراطي، وبغير التحديث كسبيل إلى النهضة والتقدم، فاعتزل خير الدين كافة مناصبه لعدة سنوات '1862م-1869م'، وخلال هذه الفترة كان منشغلا بكتابة "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" الذي نشره في تونس بعد ذلك وعمره خمسة وأربعون عاما،" وعلى أثر صدور كتابه عاد إلى شؤون الحكم في تونس حتى أصبح الحاكم الفعلي للبلاد سنة 1873م، ولمدة أربع سنوات، ثم عينه السلطان عبد الحميد الثاني الذي قرأ كتابه صدرا أعظم في الآستانة عام 1878م، ولكنه لم يبق في هذا المنصب إلا شهورا على الأخص تدخله لخلع الخديوي إسماعيل عن كرسي الخديوية في مصر، وقد توفي بالآستانة سنة 1889م، عن سبعة وسبعين عاما"[2].

[1] نازك سابايارد: الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، ص20.
[2] صلاح زكي أحمد: أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، ص31.

وفي كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، نهل من كتب أوربية في السياسة والقانون والاقتصاد، فهو "لا يذكر اليوم إلا بكتابه المذكور، وعلى الأخص بمقدمته التي وضع فيها خلاصة آرائه وتجاربه في الحكم ومن خلال زياراته المتعاقبة لأوربا، على أن بقية الكتاب ما هو إلا تأريخ لدول أوربا وللدول العثمانية"[1].

فقد كانت رؤاه الإصلاحية غير مقتصرة على الحالة التونسية، وإنما تحمل داخلها طموحا للتعميم على الدولة العثمانية التي بدأت ممتلكاتها وأراضيها في الشمال الإفريقي تتآكل مع الطموحات التوسعية الأوربية، التي وصلت ذروتها في 1830م مع احتلال فرنسا للجزائر، فهو يقدم دعوة للشرق من أجل النهوض والاستفادة من الغرب، وذلك ليتمكن الشرقيون من الخروج من حالة التخلف ومنافسة الغربيين، فنجده "في أكثر من موضع في كتابه يحذر خير الدين التونسي من خطر الاستعمار الأوربي، ولكنه يجدد بصورة حاسمة أن سلوكنا لطريق النهضة هو السد المنيع ضد هذا الخطر الساحق، ومن هنا فإن الفكرة الدافعة له إلى كتابة كل ما كتب هي: ينبغي أن نقلد أوربا في كل ما نستطيع، أو قل أن هذه أوربا هي الخطر المحيق، وكما يقول بكلماته القوية هي "السيل المتدفق، والتيار المتتابع الذي يوشك أن يغرق كل ما حوله، فكيف النجاة منه؟ لن يكون ذلك إلا بأن تحذو الممالك المجاورة حذوه ،وتجري مجراه في التنظيمات الدنيوية، فيمكن نجاتهم من الغرق"[2].

[1] عز ت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، د ط، 1986م، ص97.
[2] صلاح زكي أحمد: أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، ص34.

فالخلاص الوحيدة للنجاة من خطر الاستعمار هو النهوض من خلال اصطناع وسائل قوة أوربا.

كما أدرك صاحب أقوم المسالك مثله مثل باقي هواة النهضة ورجال الإصلاح في القرن التاسع عشر، أن الأوضاع لا يمكن أن تتغير، وأن يخطو المجتمع خطوات ثابتة فوق درب الحداثة الحقيقة بدون تغيير الأوضاع السياسية، فغرضه الأساسي"هو قوة الدولة وتقدم الأمة في التمدن ورفعتها نحو آفاق النهضة...ولما كان التونسي يربط تقدم الأمة بقوة الدولة، وقوة الدولة بالحكم الصالح، فإن ميدانه الذي يجول فيه بالنظر من خلفه ومن حوله ومن أمامه هو ميدان السياسية ونظرية الحكم الصالح...ووسائل هذا الحكم وطرق إقامته، و في هذا الميدان يصبح الموضوع الأجدر بالاهتمام هو شروط حسن الإمارة كما يقول"[1] .

وبهذا هو يؤكد في كتابه أكثر من مرة على أن سبب قوة الغرب هو تنظيماته "فإذا أراد المسلمون مقاومة الغرب بل ومنازلته فعليهم بتنظيماته السياسية"[2].

فيتجه إلى التعريف بالنظم السياسية الأوربية والتونسي باعتباره رجل الفكر السياسي "فموضوعه هو السياسة... ورغم غيبة المضمون الاجتماعي في كتاباته، إلا أنه يحق أن نقول أنه يتحدث في سياسة الدولة من حيث ازدهار العمران"[3].

[1] صلاح زكي أحمد:أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، ص32.
[2] عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، ص107.
[3] المرجع نفسه، ص28.

فهو يؤكد على ضرورة الأخذ بالمعارف وأسباب العمران الموجودة في أوربا ،لأنها طريق المجتمع إلى النهوض، وإذا كان هذا الطريق يتطلب تأسيس الدولة على دعامتي الحرية والعدل.

كذلك "بيّن خير الدين أن الثورة الفرنسية نقلت الإنسان إلى مجتمع جديد زالت فيه العبودية، وحقق الحرية والمساواة إزاء القانون، وأكد أن الحرية كانت السبب في مدنية أوربا وعلومها"[1].

فقد وقف خير الدين وقفة طويلة عند مفهوم الحرية ودورها فيما حققه المجتمع الأوربي من تقدم لأنه لمس عن كثب ويلات الحكم المطلق الاستبدادي، وآثاره الوخيمة، فكان هدفه الأول والرئيسي تقدم الدولة ونفع الأمة.

إن حديث خير الدين عن العدل السياسي، وعن مراقبة برلمان منتخب لأعمال الحكومة واحتسابه على الدولة كذلك وحديثه عن الحريات العامة، يسقط نظرية العادل المستبد.

ومن جهة نجده "لم يحدد خير الدين معنى الوطن، ولكنه بين حبه لتونس وطنه بالتبني واصفا لأولاده الجهود التي بذلها لترقية العلم والزراعة والصناعة فيها وتحسين أحوالها الاقتصادية"[2].

[1] عزت قرني:العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، ص29.
[2] المرجع نفسه، ص35.

"وقد وصف خير الدين التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي الذي أحرزته تونس بعد أن عينه الباي وزيرا"[1] .

فقد قام بعدة إصلاحات في ميادين الإدارة والتعليم والاقتصاد، وقاوم الحكم الإستبدادي فكان له الفضل في تأسيس "المدرسة الصادقية"، وأعاد تنظيم التعليم في جامع الزيتونة الذي كان لقرون طويلة قلعة العلم والثقافة في تونس، " وقد أسس كذلك مكتبة كبيرة تضم كثيرا من الدوريات، إضافة إلى عدد كبير من الكتب التي كانت تطبع في المشرق العربي وأوربا، كما شجع نشر الكتب والمجلات في المطبعة التونسية التي تأسست قبل حكمة بخمسة عشر سنة تقريبا"[2].

وقد سعى التونسي في بداية "مشروعه لبناء الدولة الإسلامية الحديثة بإرساء مفهوم راسخ للعدل"[3]، ثم يتحدث عن مفهوم الحرية من خلال التطلع على نظم الحرية الأوربية والتي قد جاء بها الإسلام ولكنه لم يعمل بها، فساهم في وضع قوانين مجلس الشورى، "وبعد تحديد لمفهوم الحرية...يقدم الوسيلة المثلى لإعلاء شأن الحرية، فبعد أن يدين الاستبداد بالسلطة وحكم الفرد، يدعو في كتابه إلى إحياء أهل الحل والعقد الإسلامية"[4]، "ثم إن ثقافة خير الدين كانت مشبعة بالروح الإسلامية والعلوم التقليدية"[5].

[1] عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، ص58.
[2] سلمى خضراء الجوسي: الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ص67.
[3] صلاح زكي أحمد: أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، ص33.
[4] المرجع نفسه، ص24.
[5] نازك سابايارد: الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، ص19.

ولهذا عند تعريفه للنظم السياسية الأوربية، ينوه إلى ضرورة الأخذ بها وفقا لما يناسب شريعتنا، ويلائمها، واسترجاع ما ضاع لأن الأمة الإسلامية سباقة في العمران والحرية والعدل والشورى، "فإن سبيله في هذا كله هو الاعتماد على الشرع والعقل وعلى المشاهدة والتأمل"[1].

فهدف كتابه الذي يحتوي على تجربته الناتجة عن مشاهداته في أوربا، أولا: حث العلماء والساسة إلى العمل على تقدم الأمة الإسلامية وتمدنها وتراثها وذلك بإتقان العمل على الطريقة الأوربية، وثانيا: التوجه إلى المسلمين الذين يرفضون الأخذ عن الغرب بإطلاقة خاصة فيما يتفق بالأدلة مع الشريعة الإسلامية، ويذكر أن الأوربيين فعلوا ذلك سابقا، فإن الأمر إذا كان صادرا عن غيرنا وكان موافقا للأدلة لاسيما إذا كنّا عليه، فلا داعي لإنكاره وإهماله، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله، "فكان من دعاة الخروج من عزلة القرون الوسطى ونصيرا للتّتلمذ على الحضارة الأوربية فيما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية، وثوابت الدين الإسلامي وقيمه، وداعيا إلى الاجتهاد في الشريعة كي تواكب المصالح المتجددة للمسلمين، كما أنه يدعو إلى الاختلاط بالأوربيين، والتعلم منهم لأنه على حد قوله في كتابه "أقوم المسالك" لا يتهيأ لنا أن نميز ما يليق بنا إلاّ بمعرفة أحوال من ليس من حزبنا"[2].

[1] عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، ص101.
[2] صلاح زكي أحمد: أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، ص29.

فهو يؤكد على وضع الإصلاح السياسي كمقدمة للإصلاح الاقتصادي، إضافة إلى الإشادة بحقوق الإنسان، من حرية ومساواة، وتقديره لدور هذه العوامل في تحقق التقدم الذي يراه متمثلا في التمدن على النمط الأوربي رافضا التبعية للغرب، "فقد جمع هذا المصلح الكبير في حياته وجهاده شبها من النّبي يوسف الصّديق، ومن المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون على حد تعبير المفكر الإسلامي محمد عمارة"[1].

وكان طيلة مشواره الإصلاحي ملتزما بمشروع النهضة الذي صاغه رفاعة رافع الطهطاوي.

[1] صلاح زكي أحمد: أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، ص30.

جمال الدين الأفغاني

"شعلة متقدمة من الذكاء، وسرعة الخاطر، وقوة العارضة، شديد الرغبة في الإصلاح، وإنهاض الأمة الإسلامية، وتحطيم الأغلال، والقيود التي جعلتها في مزغبة ومذلة وجهل ومرض وانحلال، كان ثورة عنيفة على الظلم والطغيان والجبروت"[1].

من بلاد الأفغان تهب عاصفة من الجهاد في وجه الطغيان، والاستبداد، والاستعمار توقظ الأمة من سباتها، إنه المناضل والقائد الإسلامي "جمال الدين الأفغاني"، "المولود سنة 1254هـ -1838م- "[2].

فقد نشأ في بيت مجيد أزدان بالشرف واعتز بالإمارة، والسيادة والحكم زمنا ما، وتربى على مهاد العز في كنف أبيه ورعايته، "درس في كابل ثم في الهند على علمائها ثم سافر إلى مصر وإلى الآستانة"[3]، كان بطبعه ميالا إلى الرحلات.

امتاز بالتكيف والمرونة مع المجتمع الذي يحل فيه، فأتاحت له رحلاته الكثيرة في العالم الاطلاع على عادات الشعوب وثقافاتها، ممّا شكل مصدرا إضافيا إلى رصيده الثقافي الواسع المتنوع.

"ليس من المبالغة القول أن حياة هذا الإمام الكبير أشبه بالأساطير، فقد تنقل من بلد إلى بلد، وفي كل موضع حل به أثار المعارك العاصفة فبقى غبارها وآثارها عند لحظة نفيه أو

[1] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص329.
[2] لويس شيخو: تاريخ الآداب العربية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د ط، 1910م، ج2، ص888.
[3] المرجع نفسه، ص888.

ترحيله من هذا البلد إلى ذاك، فترك في كل وطن جذوة من النار والثورة مشتعلة في وجه الفساد والظلم والطغيان"[1].

كانت رحلته رحلة دائمة لا تعرف الاستقرار، فالأفغاني يعتبر رجلا نهضويا وتنويريا أمدتنا به الأفغان، فعرف بفيلسوف الشرق، غادر الآستانة لأنه لم يجد فيها جوا صالحا للنهضة العلمية والفكرية، واتجه مصر، فروح الأفغاني كان لها الأثر البالغ في نهضة العلوم والآداب في مصر بما فيها جامع الأزهر والمعاهد العلمية الحديثة والتقدم العلمي الذي ابتدأ منذ عهد محمد علي، فمصر كانت على استعداد لتقبل دعوة الأفغاني وكان أثره في مصر أقوى وأعظم منه في أي بلد من البلدان الأخرى، كما كانت شخصية الأفغاني العلمية وشهرته الأدبية، أقوى من شخصيته السياسية، والخديوي إسماعيل لم يكن يقصر في اغتنام الفرصة لتنشيط النهضة العلمية ورعاية العلماء والأدباء، فترغيبه في بقاء جمال الدين الأفغاني في مصر يشبه أن يكون فتحا علميا.

وكان أسلوبه – الأفغاني– في التدريس مخاطبة العقل، وفتح أذهان تلاميذه ومريديه إلى البحث والتفكير، وبث روح الحكمة والفلسفة في نفوسهم، وتوجيه أذهانهم إلى الأدب والإنشاء والخطابة وكتابة المقالات الأدبية والاجتماعية والسياسية، فظهرت على يده نهضة في العلوم و الأفكار أنتجت عقولا نيرة وأقلاما شجاعة.

[1] صلاح زكي أحمد: أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، ص36.

فقد كان يرى –جمال الدين الأفغاني– "أن النهضة تبدأ في الدّين فدعا إلى تطوير الأزهر وإصلاحه، وسعى للتغيير الفعلي في أوضاعه، وقد أغضب الأفغاني الحاكمين في مصر، إذ رأوا في أعماله خطرا على تسلطهم ونفوذهم"[1].

وقد بدأت النهضة التي ظهرت على يد الأفغاني علمية أدبية، ولم تتطور إلى الناحية السياسية إلاّ حوالي سنة 1876م، فانتشرت آراؤه السياسية وكراهيته للاستبداد ونزعته الحرة.

وقد أثر الأفغاني في مصر، فعند وصوله كانت في أسوأ أحوالها اقتصاديا وسياسيا، إذ تمثل نشاطه الفكري في إلقاء المحاضرات والدروس التي كسرت حالة الجمود الفكري السائد في مصر آنذاك، وكان من تلامذته: "محمد عبده"، "سعد زغلول" و"محمود سامي البارودي".

"أراد الأفغاني في درسه النظامي أن يعوّد الطلبة حرية البحث، ويطلعهم على آفاق جديدة من التفكير وفهم العالم ... وأراد في مدرسته العامة أن يعلم الشعب كيف يسترد حريته المفقودة وكرامته المهدرة ... وأراد في ميدان السياسة أن يغير هذا الحكم المطلق الذي يستبد فيه الحاكم بأمته، ويستهين بشعبه، ويتصرف في أموالهم وأرواحهم"[2].

وقد ساعده في تحقيق أهدافه السياسية مجموعة من الشبان والتلاميذ، كان يحرضهم على إنشاء الجرائد والكتابة فيها مثل جريدة "التجارة" لأديب إسحاق، "وفي هذه الجريدة كتب السيد جمال الدين مقالين أحدهما: الحكومات الشرقية وأنواعها، والثاني بعنوان: روح البيان في الإنجليز والأفغان ... وقد تدخل كذلك في تحرير الوقائع المصرية، وطلب إلى الكُتّاب أن

[1] كاظم حطيط: دراسات في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، د ط، د ت، ص109.
[2] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص335.

يدبجوا مقالاتهم في موضوعات معينة تمس حياة الأمة في صميمها"[1]، لذا اضطر الحكام لنفيه، " وبعد ثماني سنوات من إقامة الأفغاني في القاهرة، رحل عن مصر التي أحبها، وسعى مخلصا لها، بعد أن عاش فيها أعواما كانت كلها نضالا وجهادا من أجل مستقبل مصر السياسي وحقوق شعبها المكافح الأبي، وعاد إلى الهند مرة أخرى"[2].

نفي الأفغاني لكن رسالته لازالت باقية، فأثناء إقامته بحيدر أباد ألف كتابه: في الرد على الدهريين، "وفيه يثبت أن الدّين أساس المدنية، والكفر فساد العمران"[3].

وبعد ذلك اعتقل الأفغاني من طرف بريطانيا أثناء إقامته بالهند، وبعدما "انتهت الثورة العرابية بالقبض على زعمائها، ومن بينهم الإمام، وحبسه مائة يوم، حكم عليه بعدها بالنفي ثلاث سنين، واختار سوريا منفى له، فوصلها في نهاية العام 1882م ... وفي عام 1883م أطلقت بريطانيا سراحه ... فسافر إلى لندن ثم سافر إلى باريس"[4].

فكما كان تنقله بين الأراضي المشرقية، هاهو يتنقل مرة أخرى لكن بين الأراضي المغربية.

"وانتقلت الشعلة إلى باريس وسطعت في "العروة الوثقى" وظّلت ألسنتها ثمانية عشر شهرا تومض في جنبات الشرق، كما تومض المنارة في ظلمات المحيط، حتى دلت على أوكار الطغيان ونمت بأسرار القرصنة"[5]، ولحق به تلميذه محمد عبده، "وفي باريس أخذ الإمامان يجاهدان من أجل مستقبل الشرق العربي الإسلامي ... وألّفا عام 1884م جمعية "العروة

[1] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص336-337.
[2] محمد عبد المنعم خفاجي: دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، دار الجيل، بيروت، د ط، 1992م، ج1، ص31.
[3] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص340
[4] محمد عبد المنعم خفاجي: دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ص32.
[5] أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب الحديث للمدارس الثانوية والعليا، دار النهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، د ط، د ت، ص441.

الوثقى" للجهاد في سبيل الإسلام والدعوة إليه والكفاح من أجله ... وعلى قيام الحكم فيها على أساس الدين الذي يأمر بالشورى والعدل بين الناس"[1]، حيث كان للأفغاني فيها "الفكر المدبر والعقل المسيطر، وللشيخ محمد عبده القلم المحرر واللسان المعبر"[2]، فاتخذت العروة شعارها إيقاظ الأمم الإسلامية والمدافعة عن حقوق الشرقيين كافة ودعوتهم إلى مقاومة الاستعمار الأوربي والجهاد، فقد دعا الأفغاني إلى الحرية والاستقلال من خلال مجابهة الحكام المستبدين والاستعمار الأوربي، فهو يستنهض عزيمة الأمة من أجل مقاومة المستعمر، ومن الأهداف التي كانت 'العروة' تسعى إلى تحقيقها "بيان الواجبات على الشرقيين، التي كان التفريط فيها ... وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات ... إشراب النفوس عقيدة الأمل في النجاح ... دعوتهم إلى التمسك بالأصول التي كان عليها أسلافهم ... الدفاع عمّا يرمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصا من التهم وإبطال زعم الزاعمين، أنّ المسلمين لا يتقدمون في المدنية ماداموا متمسكين بأصول دينهم ... تقوية الصلات بين الأمة الإسلامية"[3]، لذلك "لم تكن معرفة الأفغاني ضد الاستعمار الأوربي محصورة في وطن، ولكنها ساحة ممتدة لتشمل كل أوطان الشرق ولذلك اهتم الأفغاني كثيرا بمفهوم الأمة الإسلامية"[4].

[1] محمد عبد المنعم خفاجي: دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ص40.
[2] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص341.
[3] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص347-348.
[4] صلاح زكي أحمد: أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، ص 40.

كتب الأفغاني في 'العروة الوثقى' مقالا تحت عنوان: 'فرصة يجب أن لا تضيع' يحفز فيها همم وعزائم الجماهير المسلحة.

وهكذا عمل جمال الدين على توسيع المدارك وتوجيه الأفكار وتعويد الشباب على الحرية في البحث والنقد، وتبصير الشعب بحقوقه وبواجبات الحكام ومسؤولياتهم تجاهه "ولما أثّرت النهضة الفكرية التي غرسها بيديه أخذ يلح على طلب الحكم النيابي ويدعوا إليه"[1].

يرد أنه كتب إلى عبد الله باشا فكري يعتب عليه لأنه سمع أن رجلا ذمه أمام الخديوي، ولم يدفع عنه، حيث يقول في المكتوب: "مولاي إن نسبتك إلى هوادة الحق ... أن أقول: عفا الله عما سلف، إلا أن تصدع بالحق وتقيم الصدق، وتظهر الشهادة، إزالة للشبهة، وإدحاضا للباطل، وإخزاء للشر وأهله، وأظنك قد فعلت أداء لفريضة الحق والعدل"[2].

"وأنت تقرأ هذه الرسالة فتحس ثورة جمال الدين في السياسة والإصلاح على الرغم من أن موضوع الرسالة كان في العتاب وتلمس في نفس الوقت أن صاحبها جاء بأسلوب جديد"[3].

وعندما توقف إصدار 'العروة الوثقى' انتقل إلى طهران بدعوة من شاه العجم فلبّى الدّعوة لكنه لم يجد مبتغاه ووجد معارضة من الشاه، فغادرها واتجه إلى روسيا وقضى بها ثلاث سنوات، "يحرك روسيا ضد إنجلترا، ويشن هجمات شديدة على شاه العجم كي يقر النظام الشوري"[4]، وعندما أحس قيصر روسيا بخطر الأفغاني عمل على إبعاده من روسيا، بعدها

[1] محمد عبد المنعم خفاجي: دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ص29.
[2] أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب الحديث للمدارس الثانوية والعليا، ص 441-442.
[3] حامد حفني داود: تاريخ الأدب الحديث _ تطوره_ معالمه الكبرى_ مدارسه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1993م، ص80.
[4] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث ، ص342.

توجه إلى باريس وهناك التقى بشاه العجم الذي دعاه إلى طهران، فلبّى الأفغاني الدعوة، من أجل الإصلاح الذي يحمل همه، لكن الشاه لم يف بوعده بل وأساء إليه – الأفغاني – " وأخيرا ذهب السيد إلى لندن وأصدر مجلة شهرية سمّاها 'ضياء الخافقين' بالعربية وبالإنجليزية، وكان يكتب بها مقالات بإمضاء السيد الحسيني"[1]

وبعدها توجه إلى الآستانة بدعوة من السلطان عبد الحميد، وهذه آخر سفرة له.

عكف الأفغاني على جهاده في سبيل الشرق، وكان متألما لبعض الخلافات الدينية بين أبناء الملّة الواحدة كالسنة والشيعة، إضافة إلى اعتزازه"بشرقيته وبلغته، واشمئزازه من هؤلاء الذين يتنكرون لقوميتهم ولغتهم"[2]

سعى الأفغاني إلى الوحدة الإسلامية نابذا للتفرق والتعصب مما أتاح له ذلك آفاقا للتحرك باتجاه مشروعه النهضوي في مختلف الساحات الإسلامية التي انفتحت عليه واستجابت لمشروعه الإصلاحي الداعي إلى الجامعة الإسلامية، وإقامة دولة إسلامية قادرة على الوقوف بوجه التدخل الغربي في شؤون الأمة الإسلامية.

"ولم يخلف كتبا تستحق الذكر، ولكنه خلّف روحا جديدة في نفوس الشرقيين، وكان غرضه السياسي توحيد كلمة المسلمين وجمع شملهم في ظل دولة واحدة، فلم يوفق إلى ذلك

[1] المرجع نفسه، ص 344
[2] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص 348

لكنه وُفق إلى تحريك الهمم واستحثاث الخواطر ....وخلف كتاب تاريخ الأفغان، وكتاب انتقاد الفلاسفة الطبيعيين"[1]

وهكذا حفلت مسيرته النهضوية الإصلاحية بالترحال والنفي من طرف الحكام، إلى أن توفي سنة 1897م، ودفن بالأستانة ثم نقل جثمانه إلى أفغانستان.

"لقد كان جمال الدين عالما مفكرا و فيلسوفا ومصلحا اجتماعيا، أشرب قلبه حب بلاده ودينه، وأرسله الله في هذه الحقبة من التاريخ ليُبدّد دياجير الجهل ويبعث الحمية في النفوس....ولقد أرغم خصومه على احترامه بصراحته وجرأته"[2]

"وكان الذين يقفون من سيرة الأفغاني على الهامش يظنون أنّه قصر جهده في تحقيق هذه الدعوة على الكتابة والخطابة والواقع الذي لاشك فيه أنه فكر ثم قدر ثم دبر، ولكن الوحدة كانت من الشتات بحيث لا تلتئم، والاستبداد كان من الثبات بحيث لا ينهزم"[3]

[1] جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ص 279
[2] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص 348-349
[3] أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب الحديث للمدارس الثانوية العليا، ص 440

رفاعة رافع الطهطاوي:

رفاعة رافع الطهطاوي (1216هـ/1801م-1290هـ/1873)

"كان اسمه هو كلمة السر، وكان اسمه هو الجملة الحضارية المفيدة في كتاب التاريخ العربي"[1]

من قادة النهضة العلمية في مصر في عهد محمد علي باشا، "هو مصري صميم من أقصي الصعيد ... ولد في طهطا وكان أجداده ممن تولوا مناصب القضاء بمصر، ثم أخنى عليه الدهر، فنشأ نشأة معتادة بين أبوين فقيرين، وقرأ القرآن وتلقي العلوم الدينية كما يتلقاها عامة طلبة العلم في عصره"[2]

التحق بالأزهر وهو في سن السادس عشر من عمره عام 1817م فدرس الحديث والفقه والتفسير والنحو والصرف... وتخرج منه، ليصبح بعد ذلك مدرسا به سنة 1821م وشيخا من شيوخ الأزهر.

"لقد تتلمذ الطهطاوي في الأزهر على شيوخ أجلاء كثيرين.... لكن أبرز شيوخه وأكثرهم تأثيرا على فكره وعقله، كان هو الشيخ 'حسن العطار' "[3]، وقد كان هذا الشيخ رحالة طاف الوطن العربي بكل أقطاره.

[1] مجموعة من الباحثين: رفاعة الطهطاوي، نوابغ العرب، دار العودة، بيروت،ط1، 1975م، ص 19
[2] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص 31-32
[3] صلاح زكي أحمد: أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، ص 24

رحلته إلى فرنسا:

تبدأ مسيرته النهضوية مع سفره سنة1242هـ /1826م إلى فرنسا ضمن بعثة رسمية "وكان من حسن حظه وحظ مصر أن طلب محمد علي إلى الشيخ العطار أن يختار له من علماء الأزهر إماما للبعثة الأولى، يرى فيه اللياقة لتك الوظيفة، فوقع الاختيار على الشيخ رفاعة"[1]، الذي كان مولعا بالسماع والاطلاع وشديد التعلق بأستاذه الشيخ حسن العطار.

كان مطلوبا منه إمامة الطلبة ووعظهم وإرشادهم، لكن طموحه الكبير ساقه إلى التّعلم والدارسة من أجل العودة إلى أرض الوطن وبحوزته ثقافة جديدة تمكن الأمة العربية من الوصول إلى مستوى مساو لروح العصر، "فتاقت نفسه إلى تلقي العلوم الحديثة، فعكف على تعلم الفرنسية بنفسه"[2]

وكان شديد الحرص في الحفاظ على الوقت فهو لم يأت للراحة، لذا أتقن اللغة الفرنسية إلى مستوى مكنه من ترجمة الثقافة الفرنسية إلى اللغة العربية.

"فأقبل على دراسة العلوم المقررة على طلبة البعثة بأكثر مما أقبل طلاب البعثة نفسها، فبدأ بإتقان اللغة للفرنسية، و بها قرأ التاريخ والجغرافيا والأدب، فلفت بهذا الاجتهاد نظر رئيس البعثة الفرنسي الذي أحبه وشجعه وسعى في تحويله مترجما ينقل إلى العربية ما تحتاج إليه"[3].

[1] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص 33
[2] جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ص 268
[3] صلاح زكي أحمد: أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، ص 25

لقد انتقل الطهطاوي إلى مرحلة جديدة، فلم يقف موقف سائح أو متفرج، إنّما متعلم ودارس ومترجم، بدأ ينسج لمصر وللعالم العربي خيوط الحياة الجديدة، "وغاص رفاعة بانبهار وعجب في المظاهر الاجتماعية للفرنسيين.... ومن أبرز ما أورده تركيزه على التنظيم السياسي والإداري لفرنسا"[1].

تتلمذ على يد العديد من العلماء الأوربيين، وأقام علاقة مع المستشرقين الفرنسيين خاصة 'سلفتسر دي ساسي' و 'كوسان دي برسفال'، والذين كانوا يقدّرون الجهد الذي يبذله الشيخ رفاعة من أجل دراسة الثقافة الفرنسية واستيعابها، حيث يشهد له أحد أساتذته بالاجتهاد والمثابرة ألا وهو 'شواليه' الذي قال عنه: " أشهد أني مدة نحو الثلاث سنوات والنصف التي مكثها التلميذ... لم أرمنه إلا أسباب الرضى سواء في تعليمه أو في سلوكه المملوء من الحكمة والاحتراس وحسن خلقه... ولكن صرف جهد مع غاية الغيرة في الترجمة التي هي صنعته المختارة له.... أن شغله مدة طويلة في الليل تسبب عنه ضعف في عينه اليسار... أنفق جزء عظيم من ماهيته المُعدّة له في شراء كتب وفي معلم مكث معه أكثر من سنة"[2]، وهذا دليل على أن الطهطاوي طيلة خمس سنوات مدة مكوثه بفرنسا لم يترك الأيام تمر دون التزود والتسجيل، من أجل الحصول على جوهر الثقافة الأوربية فكانت الدراسات التي قام بمراجعتها وتصحيحها، هي أول كتب حديثة تدخل إلى بوابة المكتبة العربية.

[1] عباس بن يحي: مسار الشعر العربي الحديث والمعاصر، ص 23
[2] عزت قرني: العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، ص 22

فسجل رحلته في كتابه الشهير "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، والذي يضم يوميات الحياة الجديدة في باريس.

العودة إلي مصر:

لقد تحمل المسؤولية بمفرده، فتحمل العبء الأكبر، وأبدع وأدى لمصر وللثقافة العربية من المنجزات، مما جعله جديرا بلقب 'زعيم النهضة الثقافية في مصر في القرن التاسع عشر'، ليعود إلى مصر سنة '1247هـ /1831م'، وهو يحمل معه خزانة مليئة بأرفف العلم والمعرفة، شاملة مختلف جوانب الحياة الأوربية، اقتصاديا، سياسيا واجتماعيا، حتى فكريا، ثقافيا وعلميا.

واشتغل بالترجمة في مدرسة الطب، ثم عمل على تطوير مناهج الدراسة في العلوم الطبيعية، "وشاء القدر أن يقيض الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة ذلك البستاني النبيل الذي أخذ بحب و دأب يغرس الأرض ببذور المدنية والتحديث، فطرحت الأرض خيرها، فبقي حريصا على تعليم وتربية أجيال جديدة أنبتتهم هذه الأرض برغم ما واجه من النفي والصعاب مثله مثل البستاني الذي يرعي الأرض برغم ما تدمي الحصى والعثرات قدميه"[1].

وفي عام '"1251هـ -1835م' أسس مدرسة الألسن واختار لها خمسين من الطلاب الذين يحسنون العربية واللغة الأجنبية، و وضع في منهجها دراسة التركية والفارسية، إضافة إلى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية"[2]، إلى جانب الهندسة والجبر والتاريخ والجغرافيا والشريعة

[1] صلاح زكي أحمد: أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، ص 23

[2] يوسف عز الدين: رفاعة رافع الطهطاوي والتعريب، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة ع 90، نوفمبر، 2000م، ص 229.

الإسلامية، وقد بذل رفاعة جهدا عظيما في إدارته للمدرسة، وكان يعمل فيها عمل أصحاب الرسالات ولا يتقيد بالمواعيد المحددة للدراسة، وربما استمر في درسه ثلاث ساعات أو أربعا دون توقف أو ملل أو تعب، يشرح لطلابه الأدب والشرائع الإسلامية والغربية، وهم بدورهم يقبلون عليها بشغف وتلهف، فضمت قسما لدراسة الإدارة الملكية العمومية لإعداد الموظفين اللازمين للعمل بالإدارة الحكومية، وقسما آخر لدراسة الإدارة الزراعية الخصوصية، كما ضمت قسما لدراسة الشريعة الإسلامية على مذهب أبي حنيفة النعمان لإعداد القضاة، وأصبحت بذلك مدرسة الألسن أشبه ما تكون بجامعة تضم كليات الآداب والحقوق والتجارة، وكان رفاعة الطهطاوي يقوم إلى جانب إدارته الفنية للمدرسة باختيار الكتب التي يترجمها تلاميذ المدرسة، ومراجعتها وإصلاح ترجمتها، "فأحسن تدبيرها حتى بلغ عدد تلامذتها 250"[1].

كذلك أنشأ مدرسة المحاسبة لدراسة الاقتصاد، و مدرسة الإدارة لدراسة العلوم السياسية، "وأحيل على رفاعة مع إدارة المدرسة، إدارة عدة معاهد: المدرسة التجهيزية معهد الفقه والشريعة الإسلامية، معهد المحاسبة ومدرسة الإدارة الإفرنجية والتفتيش على مدارس الأقاليم وتحرير الوقائع المصرية"[2].

ومنها بدأ مشروعه الثقافي الكبير، ورسم خطط المستقبل واللبنات الأولى لحركة النهضة، وظل جهده يتنامى بين الترجمة والتخطيط والإشراف على التعليم والصحافة "وهو

[1] لويس شيخو: تاريخ الآداب العربية، ص121.
[2] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص 39

الذي باشر أول جريدة عربية في بلاد الشرق، وهي الوقائع المصرية سنة 1248هـ – 1832م "[1]، إلى جانب عشرين كتابا من ترجمته وعشرات غيرها أشرف على ترجمتها، "ظل الشيخ سبعة عشر عاما وهو دائب في عمله لا يمل ولا يكل.... وكلما زاد اجتهاده ونتاجه زاده أولوا الأمر مكافأة وتقديرا فمنحه محمد علي رتبة 'أمير الاي' و13000 قرشا في الشهر، و350 فدانا في طهطا"[2] .

ومع تولي الخديوي عباس حكم مصر أغلق مدرسة الألسن وأوقف أعمال الترجمة ، ونفى الطهطاوي إلى السودان "تحت شعار إنشاء مدرسة ابتدائية هناك وتعيينه ناظرا لها"[3]. وكان سبب نفيه ربما كتابه 'تخليص الإبريزفي تلخيص باريز' الذي يحتوي على آراء ومبادئ لا يرغب فيها الحاكم المستبد. غير أنه واصل مسيرته في منفاه ولم يتوقف عن الترجمة، وهناك ترجم مسرحية 'تليماك لفنلون'، " فقد ذكر أنه قصد ترجمة تليماك إسداء نصائح إلى الملوك والحكام، وتقديم مواعظ لتحسين سلوك عامة الناس"[4].

وبعد مرور أربعة أعوام على نفيه، وموت الخديوي عباس وتولي سعيد باشا الحكم، عاد الطهطاوي إلى مصر، "فعين وكيلا للكلية الحربية ومديرا لمدرسة الهندسة ومدرسة العمارة مع الاحتفاظ برئاسة قلم الترجمة، بيد أن هذه المدارس جميعها ألغيت في سنة 1860م، كما ألغي قلم الترجمة، فظل الشيخ بدون منصب حتى عهد إسماعيل"[5]، فيشرف مرة أخرى وأخيرة

[1] لويس شيخو: تاريخ الآداب العربية: ص 121
[2] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص 39
[3] المرجع نفسه: ص 39
[4] أحمد هيكل: تطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1994م، ص 40
[5] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص 42

علـى مكاتـب التعلـيم، ويـرأس إدارة الترجمـة، ويصـدر أول مجلـة ثقافيـة فـي تاريخنـا'روضـة المدارس'، ويكتب في التاريخ 'أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل'، وفي التربية والتعليم والتنشئة 'مباهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية' و 'المرشد الأمين للبنات والبنين'.

"ويبدو أن زوجة إسماعيل تأثرت به فأسست أول مدرسة للبنات سنة 1873م، فأثمرت البذرة التي بذرها رفاعة في مصر، ومن ثم في الشرق العربي"[1].

أما في السيرة النبوية فقد كتب 'نهاية الإيجاز في تاريخ ساكن الحجاز'، ومن مؤلفاته أيضا 'القـول السـديد فـي الاجتهـاد والتجديـد'،'تعريـب القـانون المـدني الفرنسـاوي'،'مغـامرات تليماك'،'قلائد المفاخر'،'المعادن النافعة'، والعديد من المؤلفات الأخرى.

" وقد رأيناه كثير التصريف في ترجمة كتبه إلا أنه سبق أهل وطنه بتعريب التآليف الغربية، فنال فضلا بتقدمه"[2].

وقد قضى رفاعة فترة حافلة من العمل والاجتهاد والإبداع، "كان له قدم عظيم في النهضة الفكرية في فجر العصر الحديث... ومازال يرعى هذه الحركة الفكرية والأدبية حتى توفي سنة 1290هـ - 1873م"[3].

[1] يوسف عز الدين : رفاعة رافع الطهطاوي والتعريب، ص 230
[2] لويس شيخو: تاريخ الآداب العربية، ص 121
[3] حامد حفني داوود: تاريخ الأدب الحديث، تطوره، معالمه الكبرى، مدارسه، ص72

"كان ذو ثقافة مشبعة بالروح الإسلامية والعلوم التقليدية...هذا وقد لعب الطهطاوي دورا كبيرا في توجيه الثقافة المصرية"[1].

ويعد من أهم الدعائم الفكرية التي قامت عليها النهضة التي أرادها محمد علي باشا في مصر، فدور الطهطاوي في حركة الترجمة، وإنشاء مدرسة الألسن كان له الأثر الهام في نمو التطوير العلمي والثقافي في مصر من خلال الاطلاع على ما وصلت إليه العلوم و الثقافات المختلفة، ولم يقف دور الطهطاوي على الترجمة والنقل فقط للعلوم والفنون الفكرية المختلفة، وإنما كانت له العديد من الإسهامات الفكرية والإبداعية أيضا، ويجيء في مقدمتها مؤلفه الشهير 'تخليص الإبريزفي تلخيص باريز'.

كما أن الطهطاوي قد تعرض للعديد من المفاهيم الفكرية التي قامت عليها الدولة الحديثة، "فنحن نجد فكرة الوطن تبرز والتغني يبدأ حتى ليمكن أن يعتبر ما كان من ذلك حجر الأساس في الأدب المصري القومي في العصر الحديث"[2].

وهكذا نرى أن رفاعة الطهطاوي يعتبر واضع بذور التجديد في الأدب المصري الحديث، "فأدبه يمثل دور الانتقال من النماذج المتحجرة التي تحمل غالبا عفن العصر التركي، إلى النماذج المتجددة التي تحمل نسمات العصر الحديث"[3].

[1] نازك سابايارد: الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، ص 19
[2] عمر الدسوقي : في الأدب الحديث، ص 32
[3] أحمد هيكل: تطور الأدب الحديث في مصر، ص 42

بعض النماذج الشعرية لرفاعة:

نظم رفاعة الطهطاوي بعض الأشعار الوطنية كما نظم بعض الأناشيد الحماسية، ومما قال:

"ولئن حلفت بأن مصر لجنّة وقطوفها للفائزين دواني

والنُّبل كوثرها الشُّهى شرابه لأبر كل البر في أيماني"[1]

وقال أيضا:

"يا حزبنا قد بنا نسود فنحن في حربنا أسود

عند اللقا بأسنا شديد هام عدانا لنا حصيد

حامي حمى مصرنا سعيد في عصره مجدنا يعود

بجنده المجنـد وسيفه المهنـد

في عصرنا مجدنا يعود"[2]

وأثناء إقامته بباريس نظم قصيدة مدح فيها مصر ومحمد علي باشا ومما قال فيها:

"أمسي وأصبح بين شعر حالك ومنير وجه هكذا الملوان

ولطالما قضيت معه حقبة ونسيم مصر معطر الأردان

زمن علي به لمصر فديتها حق وثيق عاطل الفكران

لو شابهت عيناي فائض نيلها لو يوف بعد شفائه أحزاني"[3]

[1] أحمد هيكل: تطور الأدب الحديث في مصر، ص 36

[2] المرجع نفسه، ص 36-37

[3] رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز، موفم للنشر، الجزائر، دط، 1991م، ص 87

وعند نفيه كان يحس بأنه ظُلم، لأنه لا يستحق هذا الجزاء فهو شديد التعلق ببلده وأرضه الذي أفنى عمره من أجلها فدفعته مرارة النفي إلى نظم الأشعار، ومن شعره في السودان:

"نحن غصنان ضمّنا عاطف الوجد جميعا في الحب ضمّ النّطاق

في جبين الزمان منك ومني عزة كوكبيه الانفلاق

وقال أيضا:

وحسبي فتكها بنصيف صحبي كأن وظيفتي لبس الحداد

وقال كذلك :

مهازيل الفضائل خادعوني وهل في حربهم يكبو جوادي

وزخرف قولهم إذ موهوه على تزييفه نادى المنادي"[1]

[1] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص 40